فن كتابة المقال والبحث الأدبى

الجزء الأول

فن المقالة

تأليف

د. صابر عبدالدايم
جامعة الأزهر
جامعة أم القرى سابقاً

د. محمد على داود
جامعة الأزهر

د. حسين على محمد
جامعة الإمام
محمد سعود الإسلامية "السعودية"

الطبعة الرابعة

١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م

دار هديل للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ١٩٨١- الزقازيق
الطبعة الثانية: ١٩٨٢- الزقازيق
الطبعة الثالثة: ١٩٨٣- القاهـرة
الطبعة الرابعة: ٢٠٠٠- الزقازيق

دار هديل للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
الزقازيق : ميدان القومية ش الشهيد أحمد إسماعيل
تليفون وفاكس : ٣٦٣٦٨٩-٠٥٥
ص.ب: ٢٧٣
رقـــم الإيداع: ٢٠٠٠/١٦٥٩٠
الترقيم الدولى: 977-306-025-x

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، الرحيم الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم، وتفرد بالبيان العربى الدالّ المحكم - فكانت بلاغته - هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها، وحُسِرَتْ العقول دون غايتها، لم تُصنَّعْ وهى من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة.

وبعد.. فهذه هى الطبعة الرابعة للكتاب " **فن كتابة المقالة والبحث الأدبى**" تصدر بعد أكثر من خمسة عشر عاماً من الاحتجاب عن القراء ولكن الكتاب ظل له صداه فى حقل الدرس الجامعى حيث دُرسّت بعض فصوله لطلاب جامعة أم القرى فى مادة مناهج البحث فى الأدب وكذلك فى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية وفى جامعة الأزهر وفى هذه السنوات المتوالية حظيت مادة الكتاب بالعناية والتوسع والمراجعه من مؤلفى الكتاب وهذه العناية اتجهت إلى إفادة الطالب وتقديم الثمرة العلمية من أقرب طريق ولم تُعْن بحشد الآراء أو الخوض فى مسائل لاتثرى عقلية الباحث ولاتشبع حاسته الفنية ولاتلقى بذوقه فى مواجهى النص وتلقيه وعلى غير المؤلوف نَصْدر الجزء الأول فحسب وهذا يبقى علينا مسؤولية حتمية وهى سرعة اصدار بقية الكتاب وهى فى الطريق بعون الله وتوفيقه.

وهذا الجزء خاص بفن "المقالة" وهى احدى الفنون الأدبية التى اتسع مداها فى العصر الحديث وتعددت ألوانها وتنوعت أهدافها.

ولفن "المقال" جذوره فى أدبنا العربى القديم، وتتمثل هذه الجذور فى كتابات الجاحظ وفى كتابات "عبدالله بن المقفع" ؛ وكذلك فيما كتبه "يحيى البرمكى" ، ويوسف بن صبيح، وسهل بن هارون، وابن الزيات، وقد عُرف عن كتابات هؤلاء بأنها رسائل، ولكن بعضها كان ينهُج نهج البناء الفنى للمقال...،،

وحين نتتبع مسيرة الكتابة الفنية فى تاريخ أدبنا العربى نرى أن الكتابة الفنية لم تبدأ فى العصر الجاهلى أو عصر صدر الإسلام.

وفى عصر بنى أمية تألقت الكتابة، وارتقت، وتعددت مراميها، وذلك لاتساع مناخ الجدل الثقافى الذى أحدثته الحياة الجديدة فى هذا العصر، فالناس منهم من يميل إلى تقاليد الحياة الجاهلية، ومنهم من يحرص على تأصيل التقاليد والقيم الإسلامية، ومنهم من يحرص على إشاعة التقاليد الأجنبية، وهم من العناصر الأجنبية التى اختلطت بالبيئات العربية.

وعرف العرب فى هذا العصر فكرة الكتاب.. وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض فى موضوع من الموضوعات "وهذا اللون أقرب إلى فن المقالة".

ونشأت الكتابة السياسية والكتابة الاجتماعية، والكتابة الشخصية، والكتابة الدينية ومن كتاب هذا العصر "زياد بن أبيه" ويروى أنه ألف كتابا فى المثالب" ومنهم "الحسن البصرى" و "غيلان الدمشقى" ؛ و "عبدالحميد الكاتب" يعد القمة التى وصلت اليها نهضة الكتابة فى العصر الأموى لما صارت إليه عنده من هذا اليسر وتلك المرونة فى أداء المعانى التى كان يعبِّر عنها تعبيراً فنياً منطقيا دقيقا لا استطراد فيه ولاحشو ولانبو بأى وجه من الوجوه، وأيضاً لما أتاح لها من هذا الأسلوب التصويرى الموسيقى، فإذا الكتابة عنده كما يقول د. شوقى ضيف" تروق العين والأذن، كما تروق العقل والعقل".

وفى العصر العباسى تطورت الكتابة تطوراً ملحوظاً.. وذلك بسبب امتزاج الثقافات المتعددة حيث تم تلاقح الثقافة العربية مع آثار الثقافة اليونانية والهندية والرومانية والفارسية، وأثمر هذا التلاقى تحولاً ملموساً فى صورة النثر العربى رؤية وآداءً.. وابن المقفع.. والجاحظ.. وابن الزيات.. من رواد الكتابة الفنية فى هذا العصر.

وتطور النثر لم يقتصر علـى الأسـلوب بـل تعدى ذلـك إلـى الموضوعـات حيث تنوعـت المضـامين والاتجاهـات - فرأينـا النـثر العلمـى والنـثر الفلسـفى، والنـثر التاريخى، والنثر الأدبى.

وفى عصر "الدويلات والامارات" يبزغ نجم ابن العميد، ويقول عنه الثعالبى فى كتابة "اليتيمة" هو عين المشرق ولسان الجيل، وعماد ملك آل بويه، يُدْعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس، ويضرب به المثل فى البلاغة، وينتهى إليه فـى الاشـارة بالفصاحة والبراعة من حسن الترسل وكذلك الألفاظ وسلاستها إلى براعة المبـانى ونفاستها و"الصاحب بن عباد" قد تميز بالسجع فى كتاباتـه لكنـه سـجع عذب بعيد عن الغموض والتكلف، وممـن أضـاف إلـى فـن الكتابـة اضافـات جديـرة بالتسـجيل والتقدير ابراهيم بن هلال الحرانى المشهور بأبى اسحاق الصابى وهو لم يغرق فى فن السجع والتصوير مثلما فعل بن العميـد والصـاحب بـن عبـاد ولكنـه اعتـدل فـى اسلوبه وطوعه لفكرت.

وفى العصر الاندلسى يبرز ابن شـهيد وابـن زيـدون ويرتقيـان بالكتابـة الفنيـة رقياً ملحوظاً ولكنها تقع تحت وطأت الصنعة عند لسان الدين الخطيب.

وترتقى الكتابة فى العصر الايوبى بجهود القاضى الفاضل، وآية ذلـك الارتقـاء أن صلاح الدين الايوبى يتخذ وزيره ومشيره وكاتبه وقد شـهد له شـهادة تـدل علـى ثقته فيه وتومىء إلى عقلية القاضى الفـاضل المتعددة الآفـاق يقـول صـلاح الديـن "والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ولكن بقلم القاضى الفاضل" وقـال عنـه العماد الأصبهانـى" رب القلم والبيان واللسن واللسان والقريحـة الوقـادة والبصـيرة النفاذه والبديهة المعجـزة والبديعـة المطـرزة، إنـه يخـترع الأفكـار ويفـترع الأبكـار ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار.

وانطلاقاً من هذا التطور فى الفن النثرى فضل بعض النقـاد النـثر علـى الشـعر فقال القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى:

"اعلم أن الشعر وإن كانت له فضيله تخصه فإن النثر أرفع منـه درجـه وأعلـى رتبه وأشرف مقاماً وأحسن نظاماً .

وكما عُنى النقاد بنقد الشعر عُنوا بنقد النثر وفى مقدمتهم ابن الأثير فى كِتابـه المثل السائر وابى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين وابن قتيبـه فـى كتابـه أدب الكاتب.

وكثير مما شرطه النقاد فى الشعر شرطوه كذلك فى النثر فشرطو فى المفردات الدقة وخلوها من الاشتراك وشرطوا كذلك أن لا تكـون الكلمـة موحيـه إلـى النفـس بما يؤذيها تصوره وأنت تكون سهله مألوفه وأن تكون طريفـة شـاعرية مسـتعملة مفيدة لاتتكرر فى الجملة القصيرة وأن تكون مصورة للمعنى المراد تمام التصوير.

هذه الإيشارات السابقة تقودنا إلى مناطق مضيئة فـى تراثنـا وتربطنـا بجـذورة الخصبة، وفن المقاله فى العصر الحديث لم ينفصل عن هذه الجـذور ولـم يتصـادم مـع تلـك المنـاطق مـع تمـيزه وتطـوره وامتزاجـه بكثـير مـن المؤثـرات الثقافيـة والفكرية، ولابد لمبدع فن المقال وناقده من ارتياده لهذه الافاق التراثيـة والتعـرف عليها والألتحام الوجدانى بها حتى تصبو لغته ويرقى بيانه وترتقى ملكتـه اللغويـة والبيانية وتتوثق الصلة بينه وبين تراث أمته الذى يمثل الايقاع الصحيـح لمسـيرة الحضارة العربية والاسلامية مع مواكبته لايقاع العصر، وما يصاحبه من تطـورات وتجديدات فى الأساليب والصور والرقى ونأمل أن يكون الجهد الـذى نقدمـه اليـوم صورة صادقة لهذا التلاحم الحميم بين واقعنا الأدبى الطموح الجديد وبين منجـزات تراثنا التليد المجيد.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل..،،

المؤلفون

١٤ رمضان ١٤٢٠هـ

٢٢ ديسمبر ١٩٩٩م

مقدمة الطبعة الثالثة

نحمد الحق سبحانه وتعالى، ونشكره على توفيقه، وبعد:

فإننا إذ نقدم هذه الطبعة الثالثة من هذا الكتاب نرجو أن يكون تأثيره قد أتى أكله طيبا، وأفاد منه أبناؤنا الطلاب والدارسون.

ولا يخفى على القارئ الصديق أننا قد حرصنا في كل طبعة نصدرها على تجويد مادة الكتاب وإضافة بعض الفصول التي رأينا حتمية إضافتها وفاعلية تأثيرها وضرورة وجودها في ذهن الباحث وهو يخوض غمرات بحثه.

ومن أبرز هذه الإضافات الفصل الأول "أعلام الرواة وأمهات الكتب"، والفصل الثاني "تحقيق المخطوطات"، وهما يربطان الطالب بتراثه الأصيل، حيث يطل منهما على عالم رحب وكنوز غالية، يطلع من أفقها وجه حضارتنا العربية والإسلامية.

ودافعنا إلى هذا الجهد حبنا لتراثنا الإسلامي، ورغبتنا في تعميق الصلة بين هذا التراث وبين اتجاهاتنا الحديثة في اللغة العربية وآدابها.

فهل أدركنا ما أحببنا؟ وهل حققنا ما رجوْنا؟

نأمل ذلك، وبالله التوفيق.

المؤلفون

١٩ من صفر ١٤٠٤هـ

٢٤ من نوفمبر ١٩٨٣م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، وبعد:

فإن الكتابةَ في البحث الأدبي تحتاج إلى رصيد ثقافي هائل، وخبرة أدبية راقية، وذوق فني خالص. وكذلك المقالة، لا يُبدعها إلا من أوتي حظا من المقومات السابقة مع تمتُّعه بموهبة أدبية سامقة.

وإيماناً منّا بهذه الحقائق رأينا أن نُقدِّم لأبنائنا ما تيسّر لنا من خبرة في هذا الميدان، حتى لا يضلوا الطريق وهم يقومون بجهودهم العلمية في كتابة البحوث التي يُكلَّفون بها في سني دراستهم الجامعية، أو التي نتمنّى لهم أن يقوموا بإعدادها في المستقبل إن شاء الله، وهي بحوث الماجستير والدكتوراه.

وقد حرصنا على الإيجاز ما أمكننا ذلك، معتقدين أن الجهد الذي نقدمه ليس إلا شمعة على الطريق الطويل.

ونسأل الله أن يجعل جهدنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلفون

الفصل الأول

المقالة

(مفهومها ـ بناؤها ـ تطورها)

١-مفهوم المقالة:

أ-في اللغة:

المقالةُ: مصدرُ قالَ يقولُ قولاً، وقيلاً، ومقالاً، ومقالةً.

والمقالةُ: القول، والجمعُ: مقالات.

وقد وردت اللفظةُ في الشعر الجاهلي في قول **النابغةِ الذبياني**:

وأخبرتُ خيْرَ الناسِ أنَّكَ لُمْتَني   وتلكَ التي تصطكُّ منها المسامعُ

مقـــالةَ أنْ قد قلتَ سوْفَ أنالُهُ   وذلك منْ تلقـــاءِ مثلكَ رائعُ

وجاء في خطبة الوداع قول النبي **محمد** ﷺ:

"نضَّر اللهُ امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدّاها، فربَّ حاملِ فقهٍ إلى مـــنْ هو أفقهُ منْه"([1]).

ب-عند النقاد:

عرَّفها الدكتور **محمد يوسف نجم** بأنها "قطعة نثريـــة، محـــدودة في الطـــول والموضوع، تُكتَب بطرقة عفوية سريعة، خالية من الكلفة والرَّهق، وشرطُـــها الأوّل أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب"([2]).

([1]) د. السيد مرسي أبو ذكري: المقال وتطوره فـــي الأدب المعـــاصر، ط١، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص١١.

([2]) د. محمد يوسف نجم: فن المقالة، ط٤، دار الثقافة، بيروت د.ت. ، ص٥٩.

ويصفها الأستاذ **أنيس المقدسي** بأنها "لا تختلف كثيراً عن الشعر الوجداني المُعبِّر عن اختيارات الشاعر الخاصَّة، فالقصيدة لا تُعَدُّ من الشعر الجيِّد إذا خلت من طلاوة التعبير وجمال التصوير، أو إذا جفَّت فجاءت بلا ماء أو رواء، كذلك المقالة، على أنَّ جمال التصوير والتعبير فيها لا يعني تكلُّف البدائع البيانية، والتوهُّجات العاطفية، بل يُراد بها الاستعراض السويُّ الشائق، الذي يجمع بين الإيجاز ودقة المُلاحظة وخفة الروح"([3]).

ويصف **هـ. ب. تشارلتن** المقالة بأنها "في صميمها قصيدة وجدانية سيقت نثراً، لتتسع لما لا يتسع له الشعر المنظوم ... فإن شئت قانوناً يضبط لك "المقالة" من حيث الصورة، فاعلم أنه قدرتها على التعبير عن خوالج النفس في سيرها الذي لا يجري على نظام واضطراد"([4]).

وقد ارتضى كتاب "التحرير الأدبي" هذا الوصف المجمل للمقالة:

١-قطعة نثرية محدودة الطول.

٢-تُقدِّم فكرة، أو موضوعاً، أو قضية جديرة بالمناقشة.

٣-ينبغي أن تكون متسمة بالأصالة، بمعنى التعبير الذات.

٤-تحمل الإقناع والإمتاع.

٥-يبرز فيها الانفعال الوجداني.

٦-عباراتها واضحة منتقاة.([5]).

([3]) أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٣٠،٢٣١.

([4]) تشارلتن: فنون الأدب، ترجمة: زكي نجيب محمود، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩م، ص٦٥.

([5]) د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص١٥٩.

٢-البناء الفني للمقالة:

ينبغي أن تكون المقالة متماسكة البناء، متآلفة الأجزاء، ألفاظها على قدر معانيها، ومعانيها ملائمة لغرضها. والتصميم الدقيق للمقالة يتكوّن من ثلاثة أجزاء، هي:

١-المقدمة.

٢-الغرض (صلب الموضوع).

٣-الخاتمة.

والمقدمة تتألّف من معارف مُسلّم بها لدى القرّاء، قصيرة، متصلة بالموضوع، معينة على ما تعد النفس له من معارف تتصل به، وهي تمهيد ملائم للدخول في الفكرة الرئيسة.

-والغرض — أو (صلب الموضوع) — هو النقطة الرئيسة أو الطريقة التي يؤديها الكاتب، سواء انتهت إلى نتيجة واحدة أم إلى عدة نتائج، هي في الواقع متصلة معاً، وخاضعة لفكرة رئيسة واحدة، ويكون العرض منطقيا مُقدماً الأهم على المهم، مؤيدا بالبراهين، قصير القصص أو الوصف أو الاقتباس، متجهاً إلى الخاتمة، لأنها مناره الذي يقصده.

والخاتمة هي ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت، "فلا بد أن تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض، واضحة، صريحة، ملخصة للعناصر الرئيسة المراد إثباتها، حازمة تدل على اقتناع ويقين، لا تحتاج إلى شيء آخر لم يرد في المقالة"([٦]).

وفي كتاب "من صحائف التاريخ" للدكتور **محمد رجب البيومي**، لو قرأنا مقالة "قوة الإرادة"([٧]) جيداً، لوجدنا أنها مكونة من:

([٦]) أحمد الشايب: الأسلوب، المطبعة الفاروقية، الإسكندرية ١٩٣٩م، ص٩٤.

أ-مقدمة.

ب-عرض.

ج-خاتمة.

والمقدمة: تبدو في التمهيد الذي قدَّم به الكاتب لمقالته، ونوّه فيه بعظمة قوة الإرادة، وبيَّن أنها ليست وقفاً على رجال البطولة الحربية وذوي القوة البدنية، وأكَّد أن قوة الإرادة صفة نفسية لا تخص العماليق من ذوي الأجسام.

وفي العرض: نفذ الكاتب إلى صلب الموضوع بعد هذا التمهيد، وعرْضُه لموضوعه قام على أربعة أفكار، هي:

١-وصف **عروة ين الزبير بن العوّام**، والتنويه بأخلاقه ومزاياه وقوة إرادته.

٢-موقفه من الثروة المالية، وهو موقف متسم بالزهد والقناعة.

٣-عزوف **عروة** عن مظاهر الأبهة والجلالة، وهي منه قاب قوس.

٤-موقفه الشجاع من مرضه، ووفاة ابنه في وقت واحد.

وجاءت الخاتمة تلخيصاً وتعليقاً على الفكرة الرابعة فقط، وكان الأجدر بالكاتب أن يُعطينا موجزاً دقيقاً، يلخِّص به أفكاره التي عرضها في أسلوب أدبي رائع، وعاطفة إسلامية صافية.

وقد أشار الكاتب في سرعة وخفاء إلى حتمية الاقتداء بأمثال **عروة**، لأنه نموذج اجتماعي وإنساني رائد، وقد دافع عن إيجازه في الخاتمة حين قال: "إن من المواقف ما يشينه التعليق، إذ يبدو بروعته الخارقة أنموذجاً فريداً يدل على نفسه بأبلغ إيحاء".

([٧]) د. محمد رجب البيومي: من صحائف التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٨١م، ص٢٤ وما بعدها.

٣-تطور المقالة في العصر الحديث:

المقالة فن من الفنون النثرية ظهرت بظهور الصحافة، واستمدّت مقوماتها من فن الرسالة قديماً، والمقالة الغربية حديثاً، وقد ارتبط تطورها في أدبنا العربي الحديث بتطور الصحافة، فقد نشأت المقالة "في حضن الصحافة، واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها، وخدمت أغراضها المختلفة، وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتّابها"(٨).

وقد تميّزت المقالة — في خضم الأشكال الأدبية بميزتين بارزتين:

الأولى: التصميم المنهجي لعناصرها، فتميزت بالاختزال، ووحدة الموضوع، وتسلسل الأفكار.

والثانية: الوضوح في التعبير، عن طريق اللغة المباشرة، وإن كانت هناك بعض المقالات الفنية والأدبية توظف الإيحاء والتصوير.

وقد مرّت المقالة الأدبية العربية في تطورها بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: (مرحلة النشأة):

وهي تلك المرحلة التي نشأت فيها الصحافة ومن أشهر كتاب هذه المرحلة: **رفاعة رافع الطهطاوي، وعبد الله أبو السعود، وسليم عنحوري** ... وغيرهم "وقد نشروا مقالاتهم في "الوقائع المصرية" و"وادي النيل" و"الوطن" و"روضة الأخبار" و"مرآة الشرق".

وقد ظهرت المقالة على أيديهم بصورة فجة، وكان أسلوبهم أقرب إلى أساليب عصر الانحطاط، فهو يزهو بالسجع الغث، والمحسنات البديعية، والزخارف

---

(٨) د. محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص٥٩.

المتكلفة الممجوجة، وقد كانت الشؤون السياسية هي الموضوع الأول لهذه المقالات، ولكن الكتاب كانوا أحياناً يعرضون لبعض الشؤون الاجتماعية والتعليمية"(٩).

ويمكن أن نمثّل لذلك بجزء من مقالة **لأحمد فارس الشدياق** بعنوان "الوطني المزيف" يقول فيه:

"من الناس من يُبالغ في مدح وطنه، ويحنُّ إليه حنينه، فيصف مروجه ورياضه، وحروجه وحياضه، ووهاده وجباله، وتلاعه وتلاله، وربوعه ودياره، ونباته وأشجاره، وبقوله وثماره، ودوحَه وأطيارَه، وطيب هوائه، ولذة مائه ... إلخ"(١٠).

وقد استمرّت هذه المرحلة حتى نهاية القرن التاسع عشر.

المرحلة الثانية: (مرحلة التطور)

وهي تلك التي نشأت في مطلع القرن العشرين، ومن بواكير كتاب هذه المرحلة: الإمام **محمد عبده**، والشيخ **محمد** رشيد رضا، ومن أعلامها: **أحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد السباعي، وعباس محمود العقاد** .. وغيرهم.

والمتأمل في نتاج هؤلاء يجدهم قد خَطَوْا بالأسلوب الأدبي في هذه المرحلة خطوة جبارة، فخلّصوه من قيود السجع والصنعة، وأطلقوه حرا بسيطاً، يحمل من الأفكار والمعاني الكثير، ويُناقش قضايا المجتمع في مختلف شؤون حياته.

ومن أمثلة ذلك مقالة **مصطفى لطفي المنفلوطي** "أين الفضيلة؟" وهو متشائم في مقالته، يوحي بأن المجتمع ــ في عصره ــ كان فاسداً في كل طوائفه جميعاً:

"فتّشتُ عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصّا في أثواب بائع، وجدته يبيعني بدينارَيْن ما ثمنه دينار واحد ... فتّشتُ عن الفضيلةِ في مجالسِ القضاء فرأيْتُ أن أعدل القضاة منْ يحرصُ الحرص كلّه على ألاّ يهفو في تطبيقِ القانون

---

(٩) السابق، ص٦٥،٦٦.

(١٠) نقلاً عن كتاب: نشأة النثر الحديث وتطوره، للأستاذ عمر الدسوقي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦، ص٥٧.

الذي بين يديْه هفوةٌ يحاسبه عليْها منْ منحه هذا الكرسيَّ الذي يجلسُ عليه مخافةَ أن يسلبه إيّاه، أمّا إنصافُ المظلوم، والضربُ على يدِ الظالم، وإراحةُ الحقــــوق علــى أهلها، وإنزال العقوبات منازلَها من الذنوب، فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه لهـــا. فتشتُ عن الفضيلةِ في قصورِ الأغنياءِ فرأيْتُ الغنيَّ إما شحيحاً أوْ مِتْلافـــا. فتشـــتُ عنها في مجالِ السياسةِ فرأيْتُ أن المعاهدةَ والاتفاقَ والقاعدةَ والشرطَ ألفاظ مترادفة معناها الكذب"([11]).

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة المقالة الحديثة:

ونقصد بها تلك المرحلة التي جـــاءت بعـــد نهايـــة الحـــرب العالميـــة الأولى (١٩١٩م)، وتستمر هذه المرحلة خمسين عاماً تقريباً حتى عام (١٩٦٧م)، وهــــذه المرحلة شهدت ظهور المجلات الأدبية مثل "الرسالة" و"الثقافة" و"الكتاب" و"الكاتب المصري" و"المجلة" في مصر، و"الأديب" و"الآداب" و"العلوم" في لبنان، و"المنهل" في السعودية، و"الحكمة" في اليمن، و"الفكر" في تونس .. وغيرها.

وهذه الفترة هي التي شهدت كتابات: **طه حسين، وعباس محمود العقـــاد، وأحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، وزكي مبارك، ومحمود تيمور، ومحمود محمـــد شاكر، وزكي مبارك، ومصطفى صادق الرافعي، وعبد القـــدوس الأنصـــاري، ووديع فلسطين، وحسين سرحان** .. وغيرهم.

وامتازت المقالات في هذه المرحلة بظهور الذاتية العاطفية، وميلها إلى المقـــال القصصي مع "الميل إلى الثقافة العامة لتربية أذواق الناس وعقولهم"([12]).

ومن الكتب التي جمعت مقالات كتبها أصحابها في دوريات قبل جمعـــها في كتاب، وتُمثّل هذه المرحلة: "وحي الرسالة" وهو كتاب في عدّة مجلـــدات يضـــم الافتتاحية التي كان يكتبها **أحمد حسن الزيات** في مجلة "الرسالة" في صدورها الأوّل

([11]) السابق، ص١٩٣.
([12]) د. محمد يوسف نجم: مرجع سابق، ص٧٠.

(١٩٣٣-١٩٥٢م)([١٣])، و"أباطيل وأسمار" لمحمود **محمد شاكر** الذي يضم مقالات له نشرها في مجلة "الرسالة" (الإصدار الثاني: ١٩٦٣-١٩٦٥م)، ويكشف فيها الزيف الثقافي الذي استشرى في هذه الفترة.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة المقالة الصحفية:

بهزيمة ١٩٦٧م تخلَّت المقالة الأدبية عن الواجهة، وأفسحت المجال للمقالة السياسية التي يكتبها: **محمد حسنين هيكل، وعلي أمين، ومصطفى أمين، وإحسان عبدالقدوس، وأحمد بهاء الدين، وجهاد الخازن، وغسان سلامة، وسلامة أحمد سلامة، وفهمي هويدي** ... وغيرهم، والمقالة الاجتماعية التي يكتبها: **أحمد بهجت، وعبد الله الجعيثن، وعبد الرحمن الدوسري، وصلاح منتصر** ... وغيرهم، والمقالة الفلسفية التي يكتبها: **زكريا إبراهيم، وفؤاد زكريا، وحسن حنفي، وإمام عبد الفتاح إمام** ... وغيرهم.

ولقد أصبح الأسلوب الصحفي، الذي يُعنى بقصر العبارة والاهتمام بالمعنى، مع خلوِّها من المحسنات البلاغية واللفظية، هو ما يُميِّز كتابات هذه الفترة الأخيرة.

([١٣]) صدرت "الرسالة" مرة ثانية عن وزارة الثقافة والإرشاد المصرية (١٩٦٣-١٩٦٥م)، ولم يجمع الزيات مقالاته في الإصدار الثاني.

الفصل الثاني

دراسات تحليلية في بعض أنواع المقالة

١-المقالة الأدبية:

تكاد المقالة الأدبية تكون شعراً منثوراً، فالذاتيةُ طابعها، وشدة الانفعال من أولى خصائصها، وتتغلّب فيها حرارةُ الوجدان على رزانة المفكر، وتتمتّع بالأسلوب الرّصين، والأخيلة الجذّابة، والعبارات المبنيّة بناءً متناسقاً مُحكماً.

ومنها مقالات **مصطفى لطفي المنفلوطي** في "النظرات" "والعبرات"، ومقالات **جبران خليل جبران** في كتابه "البدائع والطرائف"، ومقالات **مصطفى صادق الرافعي** في كتبه المتعددة، مثل "وحي القلم" و"السحاب الأحمر" ... وغيرها، ومن هذا النوع أيضا مقالات **أحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، ومحمد زكي عبد القادر، وأمين الريحاني، ومحمد عوض محمد.**

يقول الأستاذ **عمر الدسوقي** في كتابه "نشأة النثر": "يقتضي الأسلوب في هذا اللون من النثر الأدبي التأنق في اللفظ، وجودة السبك، وتوليد المعاني، والمعرفة بأسرار اللغة ووفرة المحصول من المفردات، والبصر بالكلام الجيد من المنظوم والمنثور. كل ذلك إلى جانب طبيعة مواتية وحس مرهف وذوق رقيق يهدي إلى مواطن الجمال".

ومن أعلامها: أحمد حسن الزيات، ومصطفى صادق الرافعي، وأحمد أمين، وطه حسين، والمازني، وسيد قطب، ووديع فلسطين، وعبد الحميد إبراهيم، وشكري عيّاد، وعبد القدوس أبو صالح، وحسين سرحان، ومحمد بن عبد الرحمن الربيع، ومحمد بن سعد بن حسين، وحمد الدخيل ... وغيرهم.

ومن نماذجها مقالة "أحقا مات علي محمود طه؟!" **لأحمد حسن الزيات**[14]، التي يقول في مطلعها:

"أحقا رفاق علي لن تروه بعد اليوم يُحيي المجالس بروحه اللطيف، ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل، ويدير على السُّمار أكؤساً من سلاف الأحاديث تبعث المسرَّة في النفوس، وتُحدث النشوة في المشاعر؟

أحقا عشاق علي لن تسمعوه بعد اليوم يُنشد القصائد الرقيقة ويُخرج الدواوين الأنيقة، ويصوِّر الحياة بألوان من الشعر والسحر والفتون، في إطار من الجمال والحب واللذة؟

أحقا أصدقاء علي لن تجدوه بعد اليوم يبذل من سعيه ليواسي، وينيل من جاهه ليُعين، ويجعل بيته سكناً لكل نفس لا تجد الدعة ولا الأنس، ومثابة لكل طائر لايجد الروضة ولا العش؟. أحقا عبادَ الله سكت البلبل، وتحطَّم الجام، وتقوَّض المجلس، وانفض السامر، وتفرَّق الشمل، وأقفر الربيع، وأصبح علي طه الشاعر العامل الآمل أثراً وخبراً وذكرى؟"[15].

ومن هذا النوع من المقالة ما كتبه **أحمد أمين** في كتابه "إلى ولدي"، ومنه قوله:

"أهمُّ ما جرَّبْتُ في حياتي أنِّي رأيْتُ قولَ الحقِّ والتزامه، وتحرِّي العدل وعمله، يُكسب الإنسان من المزايا ما لا يُقدَّر. لقد احتملْتُ في سبيلِ ذلك بعضَ الآلام، وأغْضبْتُ بعضَ الأنام، وضاعتْ عليَّ من أجله بعضُ المصالح، ولكني برغم ذلك كله

---

(14) أحمد حسن الزيات: أحقا مات علي محمود طه، مجلة "الرسالة"، العدد (٨٥٦)، في ١٣٦٩/٢/٧هـ (١٩٤٩/١١/٢٨م)، ص١٦٤١، ١٦٤٢.

(15) انظر نص المقالة في كتاب "الأدب العربي الحديث: الرؤية والتشكيل"، ص٣٠٢-٣٠٥.

قد استفدتُ منه أكثرَ ممّا خسرت، لقد استفدْتُ منه راحة الضمير، واستفدتُ منه ثقةَ الناسِ بما أقول وما أعمل، واستفدتُ منه حسن ظنِّهم بنا يصدرُ عنِّي ولوْ لم يفهموا سببه"(١٦).

***

٢-المقالة الدينية

المقالة الدينية هي تلك المقالة "التي يهتمُّ صاحبها بإبراز عاطفته الدينية نحو أمر يمس العقيدة أو يتصل بالمجتمع، فيكتب مقالة تُبيِّن عن رأيه فيما هو بصدده، متسماً أسلوبه بالتدفق الشاعري نحو القيم الدينية، والذب عنها، والإخلاص لما تدفع إليه، فهو لا ينطلق في توجهه من عبث أو تلهٍ أو استدرار، قدرَ ما يستند إلى ذلك المنبع العظيم النيِّر المشرق، يستمد منه توجهه، ويمتح من نميره أفكاره"(١٧).

وهي "تُعنى بدراسة قضايا العقيدة وشعائر الدين ودورهما في حياة الفرد والمجتمع، وبدهي أنّ موضوعاتها مما يمس حياة الإنسان وصلته بنفسه ومجتمعه وخالقه، ومن ثمّ فهي ذات جذور بعيدة في تراثنا العربي، غير أن تطور الحياة وما ظهر فيها من حياة الناس تتطلب تحديد الموقف الديني منها، وظهور العديد من المجلات الدينية مثل "الأزهر" و"الإخوان المسلمون" و"منبر الإسلام" و"نور الإسلام" و"هدى الإسلام" ساعد على ذيوع المقالة الدينية"(١٨).

وتُسيطر عليها الروح الدينية، حيثُ تُخاطب الوجدان المسلم، وتتلمّس أسباب ضعف الكيان الإسلامي، ثم تبحث عن وسائل تقويته، والأسلوب في هذا

---

(١٦) أحمد أمين: إلى ولدي، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م، ص١٦.

(١٧) د. محمد العوين: المقالة في الأدب السعودي الحديث، ط١، مطابع الشرق الأوسط، الرياض ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ١/٢٠٦.

(١٨) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ط١، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست، طنطا ١٩٩٦م، ص٩٩.

النوع يستمد قوته من الاقتباس من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وخطب الخلفاء الراشدين وكبار الأئمة.

وعلى كاتب المقالة الدينية أن "يحسن اختيار النصوص الدالة من القرآن والحديث بحيث يأتي الاستشهاد في موضعه الصحيح دون تعسف، وأن يصوغ المقال الديني بأسلوب مؤثر يُرضي العقل بمنطقه، كما يريح القارىء بوضوحه أو لا يهجم بهذا الاستشهاد دون أن يمهد له بذكر القضية التى يعالجها محاطة بالبراهين الفكرية قبل النص الدينى ، حتى إذا أشبعها تحليلاً وتفسيراً، وأفاض فى عرضها المستوعب جاءت النصوص فى الخاتمة مصدقة لما بين يديها من الآراء"(*).

ووسائل الإقناع هنا تكون نقلية غالباً حيث يدلل الكاتب على آرائه بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وبالمأثور من خطب الخلفاء ومواعظ الأولياء، وقد تكون قياسية وذلك بضرب أمثلة من التاريخ الإسلامى، والاتكاء على سلوك الشخصيات الرائدة التى تُمثّل نماذج عامة فى الوجود الإسلامى.

والمقالة الدينية كثيراً ما تجنح إلى التاريخ تستلهمه العبر، وتستنطقه العظات، وتدلل به على مواجهة الحاضر وقضاياه المتشعبة.

ومن روّاد كتابة المقالة الدينية فى العصر الحديث: محمد عبده، ومحمد رشيد رضا. ومحمد فريد وجدي. ومن كتّابها الدكاترة والأساتذة: عباس محمود العقاد، وأحمد حسن الباقورى، ومحمد متولى الشعراوى، ومحمد الغزالى، ويوسف القرضاوى، ومحمد السعْدى فرهود، وخالد محمد خالد، ومصطفى محمود، وعبدالكريم الخطيب، ومحمد عبدالواحد حجازى، ومحمد فهمى عبداللطيف، وأحمد زين، وأحمد بهجت، وأحمد عمر هاشم[19]....وغيرهم.

ومن نماذجها مقالة "الديمقراطية الإنسانية" لعباس محمود العقاد[20]، وهذا نصُّها:

(*) د. محمد رجب البيومى: مقدمة كتاب " من معالم الاسلام" للعلامة محمد فريد وجدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص١٦.

(١٩) انظر مقالة "الديمقراطية الإنسانية" للأستاذ عباس محمود العقاد، في المقالات المختارة. واقرأ فى كتاب "من صحائف التاريخ" للدكتور محمد رجب البيومى هذه المقالات: "من ثمار الإيمان" ص٥، وبطولة إسلامية نادرة"، ص١١، و"قوة الإرادة"، ص٢٤، و"الإسلام فوق كل اعتبار"، ص٣٤، و"صوفي يستشهد غازياً"،ص٤٩.

(٢٠) عباس محمود العقاد: الديمقراطية فى الإسلام،ط٥، دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٣.

نستطيع بعد الفصول المتقدمة أن نقرر أن شريعة الإسلام كانت أسبق الشرائع إلى تقرير الديمقراطية الإنسانية، وهي الديمقراطية التي يكسبها الإنسان لأنها حق لـه يخوِّله أن يختار حكومته، وليست حيلة من حيل الحكم لاتقاء شر أو حسم فتنة ولا هي إجراء من إجراءات التدبير تعمد إليها الحكومات لتيسير الطاعة والانتفاع بخدمات العاملين وأصحاب الأجور، وتقوم الديمقراطية الإسلامية بهذه الصفة على أربعة أسس لا تقوم ديمقراطية كائنة ما كانت على غيرها، وهي:

١-المسؤولية الفردية.

٢-عموم الحقوق وتساويها بين الناس.

٣-وجوب الشورى على ولاة الأمور.

٤-التضامن بين الرعية على اختلاف الطوائف والطبقات.

هذه الأسس كلها أظهر ما تكون في القرآن الحكيم وفي الأحاديث النبوية وفي التقاليد المأثورة عن عظماء الخلفاء.

فالمسؤولية الفردية مقررة في الإسلام على نحو صريح، وبآيات متكررة تُحيط بأنواع المسؤولية من جميع الوجوه؛ فلا يُحاسب إنسان بذنب إنسان "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، ولا يُحاسب إنسان بذنب آبائه وأجداده أو بذنب وقع قبل ميلاده "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون"، ولا يُحاسَب إنسان بغير عمله "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" .. و"كل نفس بما كسبت رهينة" .. و"كل امرئ بما كسب رهين" "ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون".

ومن تفصيل المسؤولية في كل شيء قوله عليه الصلاة والسلام: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في بيت سيده ومسؤول عن رعيته".

أما عموم الحقوق فالقرآن صريح في مساواة النسب ومساواة العمل "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

أما الحكم بالشورى فالقرآن الكريم صريح في وجوده، وليس بعد إيجابه إعفاء منه لوال من الولاة: "وأمرهم شورى بينهم".

ومن تمام المسؤولية الفردية تكافل الأمة في المسؤولية العامة، فإن الأمة قد تُصاب جميعاً بضرر جناه عليها بعض أبنائها، فمن حق كل فرد أن يدفع الشر عن نفسه وعن غيره "واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة".

وعلى كل فرد أن يبذل في دفع الشر جهد ما يستطيع "لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وسعها"، ولكنه قد يصاب بضلال غيره عملاً ولا يُحاسب عليه شرعاً "لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديْتُمْ".

هذه هي الأسس التي لا تقوم الديمقراطية على غيرها في بيئة من البيئات، وإذا علمنا من شأن أمة أنها تؤمن بالمسؤولية الفردية، والمساواة، وترفض الاستبداد بالرأي في الحكومة، وتتواصى بدفع الشر متكافلة في دفعه، فلا تعنينا ما تُسمّى به في مصطلحات السياسة الحاضرة أو الغابرة، لأنها أفضل الحكومات سواء عُرفت باسم الديمقراطية أو بغيرها من الأسماء".

ومن الملاحظ على هذه المقالة ما يلي:

١-أن الكاتب أخذ مصطلح "الديمقراطية"، وبيَّنه في الإسلام، من خلال تطبيقه العملي الذي يهتم بـ:

أ-المسؤولية الفردية.

ب-عموم الحقوق وتساويها بين الناس.

ج-وجوب الشورى على ولاة الأمور.

د-التضامن بين الرعية على اختلاف الطوائف والطبقات.

٢-أيّد الكاتبُ ما يذهب إليه بالاقتباس من القـــرآن الكـــريم والأحـــاديث الشريفة.

٣-بيّن أن الديمقراطية الإسلامية "ديمقراطية إنسانية" تهتم بالإنسان، وترفع من شأنه، وتساوي بينه وبين الآخرين.

٤-للمقالة مقدمة وعرض وخاتمة:

في **المقدمة** بيَّن أن "شريعة الإسلام كانت أسبق الشرائع إلى تقرير الديمقراطية الإنسانية".

وفي **العرض** شرح وجهة نظره، مستشهداً بالمنقول مـــن القـــرآن الكـــريم والأحاديث الشريفة.

وفي الخاتمة بيَّن ما وصل إليه وهو "هذه هي الأسس التي لا تقوم الديمقراطيـــة على غيرها في بيئة من البيئات، وإذا علمنا من شأن أمة أنها تؤمن بالمسؤولية الفردية، والمساواة، وترفض الاستبداد بالرأي في الحكومة، وتتواصى بدفع الشر متكافلـــة في دفعه، فلا تعنينا ما تُسمّى به في مصطلحات السياسة الحاضرة أو الغابرة، لأنها أفضل الحكومات سواء عُرفت باسم الديمقراطية أو بغيرها من الأسماء".

٥-يؤخذ على هذه المقالة استعمالها للمصطلح المُعرَّب "الديمقراطيـــة" رغـــم شيوعه، وكان من الممكن أن تكون مقالته بعنوان "الشورى"، إو "إنسانية الحكم في الإسلام".

***

٣-المقالة الاجتماعية:

فيها يبسط الكاتب أفكاره ليحل مشكلة اجتماعية، أو يُعالج ظاهرة اجتماعية تُهدد أمن المجتمع، كمشكلة الفقر، أو مشكلة الإسكان، أو ظاهرة البطالة، أو ظاهرة

الهجرة للخارج، أو بعض مشاكل الأسرة، مثل: ارتفاع سن الزواج، أو غلاء المهور، أو كثرة الإنجاب، أو العقم ... وغيرها من المشاكل التي تعوق تقدم المجتمع ورخاءه.

والأسلوب في هذا النوع من المقالة يجمع بين الفكر والعاطفة، ولكنه يبتعد عن الإغراق في الخيال، ويجنح إلى سهولة العبارة وانسيابها، وأداء اللفظ للمعنى بدون زيادة ولا زخرفة، ولا مجال فيها للتعبير المجازي إلا إذا جاء عفواً أو على سبيل التمثيل وتقريب المعنى. والكاتب يلجأ إلى هذا الأسلوب لأنه يتجه بمقالته إلى طوائف الشعب المختلفة، وعلى قدر موهبته في تطبيق القاعدة البلاغية "لكل مقام مقال" يضمن لكتابته التأثير الفعّال.

ومنها ما يكتبه دعاة الإصلاح الاجتماعي في حتمية التمسك بالقيم الدينية والتقاليد الاجتماعية، مثل المقالات التي كتبها **أحمد أمين** في كتاب "فيض الخاطر"، وما كتبه **مصطفى لطفي المنفلوطي** في كتاب "النظرات"، وما كتبه **أحمد حسن الزيات** في كتاب "وحي الرسالة"، وماكتبه **ميخائيل نعيمة** في كتبه: "مهب الريح"، و"الأوثان"، و"البيادر".

وعمر المقالة الاجتماعية قصير، لأنها مرتبطة بظروف وقيم اجتماعية غير ثابتة، ولذلك يزول أثرها بزوال المؤثّر، ما لم ترق إلى الإحساس الإنساني العام الذي يُخاطب كل الأجيال في أي زمان وفي أي مكان.

وقد جاء في كتاب "التحرير الأدبي" عن سماتها:

١-"تتناول الظواهر الاجتماعية، وتنتقد العادات السيئة، والتقاليد الضارة، وتُنفّر منها، وتُرغّب في النافع المفيد"([٢١]).

٢-تتسم بالدقة والتفصيل في عرض الموضوع.

٣-الإقناع بتقديم الحجج السليمة والأدلة المبنية على المنطق.

([٢١]) د. السيد مرسي أبو ذكري: المقال وتطوره في الأدب المعاصر، ص٧٤.

٤-سهولة الألفاظ وقربها من الحياة الواقعية.

٥-وضوح المعاني، وترابطها، والتعليل لها.

٦-تقديم الحلول، أو السخرية الناعمة أو الحادة إذا كان ما يعرض له يستعصي على الحل.

ومن كتّابها: **مصطفى لطفي المنفلوطي**، **ومصطفى صادق الرافعي**، **وأحمد حسن الزيات**، **ومحمد سعيد عبد المقصود**، **ومحمد حسين زيدان**، **وعائض الرّدادي**[٢٢] ... وغيرهم.

ومن هذه المقالات ما يكتبه الكتّاب في الصحف اليومية، مثل "الأخبار" و"الجمهورية" و"الأهرام" و"الوفد"، وفي المجلات الأسبوعية، مثل "المصور"، و"روز اليوسف"، و"الإذاعة والتليفزيون"، و"مايو" .. وكلها تفيض بالمقالات الاجتماعية التي تناقش قضايانا العصرية.

وبعض كتاب المقالة الاجتماعية يعدون من المصلحين الاجتماعيين، لوقوفهم أمام قضايا مهمة في مجتمعاتهم بالدرس والتناول، ويمكننا أن نعد من هؤلاء المصلحين الاجتماعيين **عبد القدوس الأنصاري** "فكم من الأفكار والمشاريع التي دعا إليها نراها اليوم وقد أصبحت حقيقة في ظلال النهضة السعودية المعاصرة، وقد عالج في مقالاته مشاكل المجتمع السعودي المختلفة من اقتصادية وثقافية واجتماعية وعمرانية وغيرها"[٢٣].

يقول في مقالة له عن مشكلة الهجرة[٢٤]:

---

[٢٢] د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص١٦٣.

[٢٣] د. نبيل المحيش: عبد القدوس الأنصاري: حياته وأدبه، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص٥٧٤.

[٢٤] نشرها في مجلة "المنهل" عدد محرم وصفر ١٣٧٤هـ (سبتمبر ١٩٥٤م)، ص١٩ وما بعدها.

"لا ريب أن الهجرة المتدفقة إلى هذه البلاد هي إحدى المشاكل الاجتماعية فيها، وينصب إشكالها على مزاحمة الوافدين زرافات ووحدانا للمواطنين في أرزاقهم ومساكنهم وفي كل شيء، مع أن البلاد في حقيقة واقعها العمراني والزراعي والصناعي لا تكفي لتموين المواطنين الأصليين، ناهيك إذا أُضيف إليهم في كل عام المئات من المهاجرين، ويظهر النقص بارزاً في موارد الطعام والكساء حين تنشب حرب عالمية — لا قدّر الله — ... فهناك تبرز أزمة الغذاء والكساء حادة للعيان ..".

وبعد هذه المقدمة التي حدّد فيها المشكلة، يتناول ما فعلته حكومة المملكة في ذلك الوقت بالعرض والمناقشة، فيقول:

"وقد لاحظت الحكومة هذه الظاهرة الاجتماعية الطارئة، فسنّت تشريعات ونظاماً لتقييد الهجرة من جهة، وللإفادة من طوائف المهاجرين من جهة أخرى، وكان من بين هذه التشريعات نظام الإقامة والدخول إلى البلاد ونظام التجنس، وما أُضيف إليهما من تعليمات وأوامر".

ويرى أن سبب كثرة القادمين إلى الإقامة في هذه البلاد مبعثه أنه مهوى أفئدة المسلمين من جميع البلاد، كما أنها ملاذهم حينما ينالهم الاضطهاد الاستعماري في بلادهم، وهو — مثل كتاب المقالة الاجتماعية المتميزين — يجتهد في وضع الحلول لهذه الظاهرة فيقول:

" وجليٌّ مع ذلك أن هذه البلاد هي مهْوى أفئدة المسلمين من جميع الأقطار، وموطنُهم الأول والأخير حين ينالهم الاضطهاد الاستعماري في بلادهم .. من دول الغرب، ولذلك نراهم يهرعون إلى "منطقة الأمان" الوحيدة الباقية لهم، كلما هزتهم هزات الأجانب الدخلاء في موطنهم.

فالحيلولة بينهم وبين الإقامة فيها بتاتاً إذ كانوا صالحين نافعين أمرٌ تتوخّاه حكمة الحكومة، وقد قال الله تعالى: "سواء العاكف فيه والباد"، وما أمر اللاجئين الفلسطينيين عنّا ببعيد.

وإذن فلم يبق لنا إلا أن ندور حول الصخرة بدلاً من أن نُحاول كسرها حتى نجتاز العقبة بسلام وبنجاح ... ولذلك أرى أنه من المتيسّر قبول دخول المهاجرين من إخواننا المسلمين إلى هذه البلاد، ولكن بشروط وضمانات".

وينظر إلى المشكلة نظرةً موضوعية في قوله:

"إنّ الكثرة الكاثرة من هؤلاء إنما تنتجع غالباً المدن المزدحمة كمكة والمدينة والرياض وجدة لتُقيم فيها مع أسرها ... وبذلك تُزيد الطين بلة، وبذلك تزداد كفة العجز العمراني والزراعي ثقلاً ورجحانا".

ويضع الحل في تصوره لهذه المشكلة، فيقول:

"ومن المعلوم أن كثيراً من إخواننا الوافدين لهم يد في الزراعة والصناعة والتجارة ... والحل الذي أراه لهذه الأزمة هو أن تؤلف لجنة واعية راشدة نزيهة لفحص طوائف المهاجرين؛ فمن كانوا ذوي زراعة في بلادهم، أو ذوي صناعة في أوطانهم، أو ذوي تجارة في مواطنهم يُفرزون، وبعد النظر في أحوالهم ومبادئهم (يقصد أفكارهم وعقائدهم) والتثبت من صلاحهم وسلامتهم من المبادئ الهدّامة والآراء الضارة، تجري الإجراءات الرسمية لهم، ويُعطَوْن الجنسية السعودية".

ثم يقترح لهم بعد ذلك:

١-أن تُعطى لهم الجنسية.

٢-أن تُخطَّط لهم بعض الأماكن المتوسطة بين المدن الآهلة، وتُرسل لهذه الأماكن المياه، وتُمدُّ إليها خطوطُ الهاتف، وتوضع بها أبنية للمرافق الصحية والعُمرانية وغيرها.

٣-تُنشأ لهم الأبنية اللازمة للسُّكنى على نظام صحي حديث.

٤-"تُعمل التسهيلات اللازمة لتأمين المواصلات لهم من إصلاح طرق للسيارات وتعبيدها ومد سكك حديدية منها إلى بقية المدن".

٥-"يُعطون كل المساعدات الممكنة لازدهار الزراعة والصناعة والتجارة والثقافة".

٦-"لا بأس أن يُفتح الباب على مصراعيه للمواطنين الآخرين للإقامة معهم في هذه المدن".

٧-"كل من ظهرت عليه بوادر الآراء الضارة، يُحرَم من الجنسية، ويُنفَى من البلاد اجتثاثاً للضرر، وكلُّ من كان منهم صالحاً فسيُعتبر مواطناً صالحاً محبوباً لأن البلاد تستفيد من جهوده ومن وجوده".

٨-"يُفتح البابُ على مصراعيه لتعليمهم اللغة العربية، ويُفرَض عليهم تعلمها وتعليمها ... ويُفرض كذلك [عليهم] استعمال الزي الوطني في مدنهم حتى تختفي الفوارق الظاهرية التي تُؤثر على المعنويات تأثيرها العميق".

ويختتم مقالته بقوله:

"إنني أعتقد إذا اهتممنا بتنفيذ هذا المشروع الضخم على وجهٍ مُرضٍ، واقتبسنا ما عمله المهاجرون الأوروبيون في العالم الجديد، نكون إذن قد حللنا عقدةً من عقدنا الاجتماعية العويصة خيرحل، فأفدنا واستفدنا، ونكون قد عمَّرْنا بلادنا اقتصاديا، وأحْللنا الخصب والنماء الاقتصادي والازدهار العمراني في هذه البراري الشاسعة محل الجدب والفراغ، وكم نُحسن صنعاً لأنفسنا ولبلادنا ولإخواننا وللعالم الإسلامي أجمع إذا قمنا بهذا الصنيع الجبّار، وسنكون قدوة طيبة للعالم، وسنجني أطيب الثمار والمنافع. وأقترح أن تُسمّى المدينة التي تنشأ أولاً على هذا الطراز باسم "مدينة سعود"، والثانية "مدينة فيصل" ... وهكذا".

وفي هذه المقالة الاجتماعية التي ترصد ظاهرة ملحة، وتضع لها الحلول، نرى الكاتب **عبد القدوس الأنصاري** "يضع تصوراً لعلاج مشكلة المهاجرين إلى المملكة العربية السعودية، وقد نظر إلى المشكلة من منظار مصلحة الوطن، بحيث يُسهم هؤلاء المهاجرون في نهضته الشاملة، مقابل تمتعهم بالأمن والاستقرار والعمل فيه.

وهذا يدل على ما كان يتمتع به **عبد القدوس الأنصاري** من نظــر ثــاقب وتفكير سليم، وقد سخّر قلمه لعلاج كثير من أمثال هذه المشاكل الاجتماعية الــتي يُعاني منها المجتمع السعودي الناهض"([٢٥]).

ومن نماذج المقالة الاجتماعية ما كتبه **علي خالد الغامدي** تحت عنوان "كيف حال الذئاب"([٢٦])، وتعد من المقالات الاجتماعية البارزة التي تتناول ظاهرة تتكــرّر في بعض المجتمعات، وهي: قيام البعض بإنشاء مشروعات لا تفيد منــها مجتمعــاتهم على الإطلاق، وإنما يفيد منها صاحبُها بإنماء ماله وتثميره، والكاتب من خلال هذه المقالة ينتقد عادة سيئة، وتقليدا ضارا غير نافع لمجتمعه، وقد تناول موضوعه بالدقــة والتفصيل، وأقنعنا بحججه السليمة حول جدوى ما يُطالب به، وألفاظــه ســهلة لا وعورةَ فيها، وإن كنا ننتقد استخدامه للعامية في لفظة واحدة في قولــه: "وفوقــها (بوسة)"، وكان يُمكنه أن يضع بدلاً منها "مع الشكر"، كمــا وجدنــا خطــأ في الاستعمال في لفظة واحدة هي "استلام" والصواب "تسلم"([٢٧]).

ومعانيه واضحة مترابطة، وهو يُعلل لما يقول، وقد امتلأت المقالة بألوان مــن السخرية، حيث يسخر من مسلك هؤلاء الذين يُقيمون مشاريع إنمائية لا فائدة منها، بل قد تُدخل الإزعاج على مواطنيهم، وتبث الخــوف في قلوبهــم، ومــن نمــاذج السخرية:

([٢٥]) د. نبيل المحيش: المرجع سابق، ص١٣٧ (بتصُرف).

([٢٦]) علي خالد الغامدي: كيف حال الذئاب، العدد (٩٤١١)، فــي ١٩٩٤/٣/٣١م، ص١١.

([٢٧]) انظر تعليل ذلك في كتاب د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص٣٣.

١-استخدام غير المألوف، كقوله: "الرعاة الجدد من أبناء جنـــوب شـــرق آسيا"، وقوله: "مجموعات مميزة من الذئاب السمينة على حدة، والرشيقة على حدة ..!".

٢-العطف على ما لا ينعطف عليه، كقوله: "صاحب الذئاب وكافلها".

٣-إبراز المفارقة، كقوله: "بدأت لعبة، وانتهت مأساة".

ومن الواضح أن السخرية هنا هدفها الإصلاح.

ولقد انتقدت المقالة عدة أمور، منها:

١-بعض الناس الذين ينشؤون مشاريع إنمائية قد لا تعود بعائد عليهم، فضلاً على من حولهم، بل قد تُسبب لهم الإزعاج والأرق.

٢-المستشارون الوافدون من الدول الأخرى، الذين يقدِّمون أفكاراً قـــد لا تتناسب مع المجتمع الذي يفدون إليه.

٣-أننا تركنا ما تميّزنا به، وأصبحنا نجري وراء أشياء قد لا نُتقنها، وقد تركنا ما نحن متفوقون فيه لناس قد لا يتقنونـــه، ومـــن ثم تخلّـــف إنتاجنـــا، وتـــأخّرت اقتصادياتنا(٢٨).

***

٤-المقالة السياسية:

تُعالج الأحداث السياسية المحلية والقومية في ضوء تطورات السياسة العالميـــة، وتعبر عن أمل الأمة في استقرار سياسي مزدهر.

ومن خصائص هذا النوع من المقالة: سهولة الأســـلوب، ووضـــوح المعـــنى، وسلامة التعبير والبعد عن الزخرف اللفظي والتفنن البلاغي؛ وذلك لأنها تُخـــاطب

---

(٢٨) ومن نماذج المقالة الاجتماعية ــ أيضاً ــ مقالة "سهام ماضية" للدكتور محمد مندور، انظر نصَّها في المقالات المُختارة.

الجماهير، وتُناقش قضايا سياسية، وكل ما تقصده هو أن تظهر الحقـــائق. ومـــن ثم فصاحبها يُدلل بالحجة المُفحمة على آرائه، ويُناقش آراء الخصوم، ويُفنِّدُها بأســـلوبه المنطقي، المُقنع، السهل، الذي ينأى عن التهويمات والإغــــراق في الخيـــال وشـــدة الانفعال.

وقد نلمس فيها نبرة القوة، ونغمة التحدي، حين يستدعي الموقف ذلك، كأن يقوم كاتب المقالة بتكذيب اتهامات تُنسب إلى وطنه، أو بتوجيه إنذار إلى معتدٍ مغير، أو الدفاع عن حق مُغتصب وإثارة أبناء الوطن لاسترداده.

ومن هذا النوع ما يكتبه رؤساء تحرير الصحف اليومية والمجلات الأســـبوعية والشهرية.

وتهتم بها الصحافة العربية اهتماماً كبيراً، وتفرد لهـــا المســـاحات الكبـــيرة في صفحاتها.

وقد بدأت في العالم العربي منذ قرن تقريباً، ومن كتابها: **عباس محمود العقاد، وعبد الرحمن الرافعي، ومحمد حسنين هيكل**[29]**، ومصطفى أمين، وأحمـــد بهـــاء الدين، وراشد البراوي، ولطفي الخولي، وحلمي القاعود، وجهاد الخازن، وفهمي هويدي، وسلامة أحمد سلامة، ومحمد الرميحي.**

ومن كتابها في المملكة: **أنور ماجد عشقي**[30]**، وحمد الدخيل**[31]**، وعبـــد الرحمن الراشد.**

---

[29] بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان في مقدمة الكتاب السياسيين، حيث كان يكتب في "الأهرام" كل يوم جمعة من كل أسبوع مقالا بعنوان "بصراحة"، يحلـــل فيـــه الوضـــع الداخلي والدولي، حتى أقصاه السادات عن "الأهرام" في عام ١٩٧٤م، وعين بدلاً منه علي أمين.

[30] انظر: د. أنور ماجد عشقي: قضايا في الفكر والسياسة: دراسة وتحليل، ط١، مكتبة التوبة، الرياض ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

ومن هذا النوع مقالة الدكتور **حسين مؤنس** تحت عنوان "قراءة عربية لخريطة العالم" التي كتبها في مجلة "الهلال"، عدد ديسمبر ١٩٨١م، يُحلل فيها واقعنا في ضوء التطورات العالمية وواقع السياسة الدولية، ويأخذ من التاريخ سنداً يدعم بـــه آراءه، ووسيلة لإقناع العرب بالحقيقة التي يجهلونها.

يقول في بداية هذه المقالة: "نظرة واحدة على خريطة الأرض تُريك أننا نحـــن العرب أقلية صغيرة وسط جبابرة ضخام يحتلون من الأرض أضعاف ما نملك نحن".

"وأين نذهب نحن العرب بين الروس والأنجلوسكسون والصينيين؟ أننا أضيـــع من الأيتام على مائدة اللئام، فهل يجوز مع ذلك أن نزيد أنفسنا ضعفـــاً بالتبـــاغض والتحاسد فيما بيننا؟"

"وهل يجوز أن نزيد أنفسنا فقراً بإنفاق أموالنا في حروب أهلية عقيم داخـــل وطن العرب؟ وهل يجوز أن نعيش مراهقين، نتصرف تصرف مراهقين وسط عـــالم من الكواسر؟"([٣٢]).

*ومن نماذج المقالة السياسية ماكتبه **أنور ماجد عشقـــي** بعنـــوان القضيـــة الفلسطينية بين العدالة الوضعية والعدالة المطلقة"([٣٣])، ومن الملاحظ على هذه المقالة:

١-أنها اهتمّت بالموضوع الذي قدّمته، ووضح هذا الاهتمـــام في الاهتمـــام بالفكرة وإبرازها من خلال التحليل، والموازنة.

٢-تتكوّن المقالة من مقدمة وغرض وخاتمة:

([٣١]) جمع المقالات السياسية التي كتبها عن غزو صدام حسين للكويت عام ١٩٩٠م في كتاب بعنوان "على نفسها جنت براقش".

([٣٢]) انظر نص المقال بمجلة "الهلال"، عدد ديسمبر ١٩٨١م.

([٣٣]) في مجلة "اقرأ" (السعودية) في ١٤١٤/٣/٣٠هـ.

أ-في المقدمة تحدث عن الوضع الراهن للقضية الفلسطينية، وتحدّث عن المجـــال الذي سيحصر فيه مقالته:

"تتسارع الخُطا نحو التسوية الكاملة للصراع العربي الإســـرائيلي المتمثـــل في القضية الفلسطينية، والذي ظل قرابة أربعة قرون من الزمن، وكاد يوشـــك هـــذا الصراع أن يُفضي إلى التصفية الكاملة للحقوق الفلسطينية والعربيـــة، وأن يفتـــح الطريق أمام أحلام اليهود إلى دولتهم الكبرى".

"لقد اصطبغ الصراع العربي الإسرائيلي بالصبغة الدولية، وما يحدث اليوم هـــو إعلان للمبادئ وليس اتفاقاً نهائيا على السلام، لأن الاتفاق على المبادئ هو اتفـــاق على رؤوس الموضوعات التي تُحدد للمفاوضين مسار التفاوض، والإطار الذي يجب عليهم التحرك من خلاله".

ب-في العرض: عَرَضَ للمراحل التي مرّت بها القضيـــة الفلســـطينية، وبيّـــن مراحلها من وجهة نظر المحتل، ومن وجهة نظر أصحاب القضية.

ج-في الخاتمة: بيَّن وجهة نظره في الحل الصحيح للقضية الفلسطينية.

٥-يؤخذ على الكاتب أن لغة المقالة تقترب من لغة البحث، فليســـت فيـــها البساطة أو التلقائية.

٦-يستخدم الكاتب بعض الكلمات الأجنبية، ويكتبها بحـــروف لاتينيـــة أو حروف عربية!

***

٥-المقالة الوصفية:

يرى الدكتور **أحمد محمد علي حنطور** أنها "تدور حول وصف ظواهر الكون والحياة في مشاهدها المُحيطة بالكاتب، أو مرائيها الجديدة، وانعكاســـاتها في نفـــس الكاتب. وهذا النوع من المقالة يستمد موضوعاته ممّا تقع عليه عين الكـــاتب مـــن

مشاهد الطبيعة في بيئته المكانية، أو صور الحياة والأحياء، التي يُشاهدها في رحلاته وتنقلاته بين البلدان، تمتزج بها نفس الأديب، ويغوص خلالها بنظراته ليُقدِّم لنا صورة وصفية ناطقة بمجالي الطبيعة مصطبغة بإحساس الكاتب ورؤيته"([٣٤]).

وكنا قد عرفنا مقالة الوصف في كتاب "التحرير الأدبي" بأنها المقالة التي تبغي تصوير ما يُريده الكاتب أو ما يخطر له على بال، أو ما يُشاهده في أسلوب مؤثر، وفيها يتتبّع الكاتب الدقائق ويُلاحظ التفاصيل الصغيرة، وينقل أثر ذلك في نفسه، مبيِّنا عاطفته، وأنها أشمل من غيرها في رسم الصورة"([٣٥]).

ومن كتابها **مصطفى لطفي المنفلوطي، ومصطفى صادق الرّافعي، وأحمد أمين، والعقاد، وطه حسين، وزكي نجيب محمود، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد العزيز البشري**، وفي المملكة: **محمد حسين زيدان، وأحمد السباعي، وحسين سرحان، وعبد العزيز الرفاعي** ... وغيرهم.

وقد نشر النادي الأدبي بالرياض عام ١٤٠٠هـ كتابا بعنوان "من مقالات **حسين سرحان**"، ومن المقالات الوصفية الجيدة في هذا الكتاب مقالتا "كنت أتمنى أن أرى ابن آدم". و"أنا لست بفاضل"، وسنتوقف هنا أمام مقالة "كنت أتمَنَّى أن أرى ابن آدم"([٣٦])، التي يبدؤها بقوله:

"قال صاحبي: كنت بين السابعة والتاسعة ــ فيما أُرجِّح ــ وتلك هي السن التي يستمع فيها الصبي إلى أحاديث والدته وجدته وعمته بشوق ونَهم في كل ما يقطعْنه من أحاديث.

([٣٤]) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٨٣.

([٣٥]) التحرير الأدبي، ص١٦٥ (بتصرف).

([٣٦]) حسين سرحان: من مقالات حسين سرحان، كتاب الشهر (العدد ١٣)، النادي الأدبي ــ الرياض ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م، ص ص٤٤-٤٧.

وكانت خطوتي قصيرة منذ صباي، فما كنْتُ أتجاوز باب الدار إلا فيما لا حيلة فيه، ولعلّ في ذلك أصلاً صحيحاً لما ألفتُه بعد ذلك ودرجتُ عليه من حب الاعتزال، وإيثار الوحدة وشدّة حيائي وفرط ارتباكي عند مخالطة الناس.

كنتُ أشدَّ حياءً من العذراءِ، فيا لفرط الشبه بيْني وبينها!، وكانت أكثر كلماتي ــ على كثرة هذيان الصبيان ــ تموت في حلقي، وطالما تراجعت حبيسات بئيسات"([٣٧]).

وفي هذه المقالة:

١-صوّر الكاتب ما يريد وما خطر بباله وشاهده في أسلوب مؤثر.

٢-تتبّع التفاصيل والدقائق في المشهد.

٣-نقل أثر ذلك في نفسه، وكيف كان مترعجاً من أفاعيل ابن آدم.

٤-رسم صورة لجهل ابن آدم وغروره.

٥-في هذه المقالة يمتزج الموضوعي بالذاتي؛ الموضوعي: السمع، والذاتي: أن ما سمعه كان من أناس قريبين منه.

وعموماً فمقالة الوصف عند **حسين سرحان** نموذج للمقالة الجيدة.

ومن الملاحظ على المقالة السابقة:

أ-أن هذا النص له أكثر من مدخل، فقوله "قال لي صاحبي ..." جعل المكتوب يخرج من دائرة المقال، ويتماس مع السرد القصصي، فهل نلمح القصة فيها؟

نعم، فقد ذكر عدة شخصيات؛ منها جدته، والمهم في جدته "الحكمة"، لذا لم يصفها، وإنما أشار إلى حكمتها، فهو في هذا النص ليس قاصا ليحدد ملامحها النفسية

([٣٧]) انظر المقالة كاملة في المختارات.

والاجتماعية والشكلية، كما أن في النص بعض الأخبار التي تُروى، وهذه الأخبار فيها "الحدث" الذي يُعتبر عاملاً من أهم عوامل القص.

ب-نلاحظ أن الوصف عنده له بعدان (خارجي وداخلي)، وهذا قليل، لم نره إلا عند **المنفلوطي والرافعي**، وهذا الوصف ينطلق من المستوى الحسي الخارجي إلى النفسي الداخلي.

ج-رسم لنا النصُّ صورة نفسية لصاحبه في قوله: "كنتُ أشدَّ حياءً من العذراءِ، فيا لفرط الشبه بيْني وبينها!، وكانت أكثر كلماتي ــ على كثرة هذيان الصبيان ــ تموت في حلقي، وطالما تراجعت حبيسات بئيسات".

د-يستخدم الصور الجمالية بكثرة، ولكن دون إفراط ــ كما نجد عند **المنفلوطي** ــ فنراه يستخدم الكنايات والاستعارات والتشبيهات، وعنده ملامح عديدة للسخرية.

هـ-الكلمات مقتصدة، فلا يكرر الكلمة إذا كان يُغني عنها الضمير.

و-استخدامه الاستفهام والتعجب جاء في مكانه.

ز-يؤخذ عليه عدم التوفيق في استخدامه المترادفات (كالعمدة، والشيخ)، لأن الكلمتين لا تتساويان، ولكل منهما بيئتها المكانية التي تستخدم فيها، ولو استغنى بإحداهما عن الأخرى لكان أفضل.

***

٦-المقالة النقدية

هي ما يكتبه بعض الأدباء والنقاد في بيان آرائهم تجاه الأعمال الأدبية من قصة وشعر ورواية ومسرحية ولوحة. "وميدانها الذي تتوجّه إليه عين الكاتب إنما هو الفن بفروعه المتنوعة، سواء أكانت أدباً أم تصويراً أم رسماً أم موسيقا أم تمثيلاً، وسواء ما يرجع في هذه الفنون إلى الأعمال الإبداعية وتقويمها أم القضايا المتعلقة بها، مثل الطبع

أو الصنعة، أو الموهبة والتكلف، أو الجمال والقبح، أم معايير الفن النظريـــة وأدوات الفنان التي استعان بها في نتاجه الفني، أم المبادئ والأسس التي تقوم عليها المذاهـــب النقدية والمدارس الفنية"([٣٨]).

ويتسم هذا النوع بالروح العلمية الجادة، حيث يحلل العمل المنقود، ويُقوِّمـــه، ويقف على مظاهر القوة والضعف فيه، ويرد ما جاء فيه من قيم فنية إلى أصولـــه إن كان الأديب متأثراً ببعض الاتجاهات الفنية أو المذاهب الأدبية، كما يرصد ملامـــح التقليد والتجديد في هذا العمل، ويفحص الألفاظ بروح الباحث، ويُقوِّمـــها علـــى ضوء ما أعطت من معانٍ وأبعاد فنية خصبة.

ومن المقالات النقدية ما يكتبه المتخصصون في الأدب وفنونه على صفحـــات الصحف والمجلات المتخصصة حيثُ يحللون بعض الأعمال الأدبيـــة والفنيـــة (مـــن دواوين، ومجموعات قصصية، وروايات، ومسرحيات، ولوحات فنية، ومعارض).

كما ترصدُ المقالة النقدية بعض الظواهر والتقاليد الأدبية المستحدثة، وتُقوِّمها، ومن هذا النوع ما ينشر بالمجلات الأدبية كـــ"الثقافة" و"الهلال" و"الجديد" و"الشعر" و"القصة و"المسرح" و"فصول" (في مصر) و"الدارة" و"المجلة العربيـــة" و"الفيصـــل" و"علامات" (في المملكة العربية الســـعودية) و"الثقافـــة" و"الثقافـــة الأســـبوعية" و"الأسبوع الأدبي" و"المعرفة" و"الموقف الأدبي" (في سورية)، و"الأقلام" و"الطليعة" و"ألف باء" و"آفاق عربية" (في العراق).

وقد يجمع بعض الكتّاب هذه المقالات في كتاب مستقل، ومن هذه الكتـــب "الديوان" الذي ألّفه **عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني**، وقد نقدا فيه أمير الشعراء **أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعبد الرحمن شكري** نقداً مُرا، وعبرا في هذا الكتاب عن رؤيتهما النقدية الجديدة، وعن تصورهما للإبداع الأدبي.

([٣٨]) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٩٥.

ومن هذه الكتب أيضا كتاب الغربال" **لميخائيل نعيمة**، الذي صاغ في مقالاته المتعددة كل القيم النقدية والجمالية التي نادى بها أدباء المهجر وطبقوها في نتاجهم الأدبي المتنوع.

ومن الكتب التي جمع فيها أصحابها مقالاتهم النقدية كتب: "مطالعات في الكتب والحياة" **لعباس محمود العقاد**، و"في الميزان الجديد" للدكتور **محمد مندور**، و"قضايا الفكر في الأدب المعاصر" **لوديع فلسطين**، و"عطر الأحباب" **ليحيى حقي**، و"مقالات في النقد الأدبي" للدكتور **محمد مصطفى هدّارة**، و"قضايا ومواقف" للدكتور **عبد القادر القط**، و"الأدب في عالم متغيِّر" للدكتور **شكري عيّاد**، و"بين أدبين" للدكتورة **فاطمة موسى**، و"حول الأديب والواقع" للدكتور **عبد المحسن طه بدر**، و"خمائل وأزهار" للدكتور **محمد بن عبد الرحمن الربيع**، و"التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث" للدكتور **صابر عبد الدايم**، و"ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء" **لرجاء النقاش**، و"كتب وقضايا في الأدب الإسلامي" للدكتور **حسين علي محمد**، و"دراسات نقدية في الأدب المعاصر" للدكتور **أحمد زلط**.

ومن الكتب المترجمة في هذا المجال: "القارئ العادي: مقالات في النقد الأدبي" تأليف **فرجينيا وولف**، ترجمة الدكتورة **عقيلة رمضان**، و"مقالات في النقد" تأليف **ماثيو أرنولد**، ترجمة وتقديم **علي جمال الدين عزت**، و"مقالات في النقد الأدبي" تأليف **ت. س. إليوت** ترجمة الدكتورة **لطيفة الزيات**.

ومن نماذج المقالة النقدية مقالة "هل لدينا مجلات خاصة بالأدب؟" للدكتور **حمد بن ناصر الدخيِّل** المنشورة في كتابه "في الأدب السعودي: بحوث ومقالات"(٣٩)، ونلاحظ أن المقالة تضمنت الأفكار التالية:

---

(٣٩) د. حمد بن ناصر الدخيل: في الأدب السعودي: مقالات وبحوث، نادي جازان الأدبي، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص٥٠ فما بعدها.

١-عدم قدرة الإنسان في العصر الحديث على الإحاطة بكل شيء في العلم، ومن ثم وجب التخصص في شيء واحد.

٢-أثر المجلات الثقافية في نشر الأدب غير كاف.

٣-الدعوة إلى إصدار مجلات أدبية جديدة في المملكة لا يعني بخس المجلات القائمة حقها؛ فهي مجلات ثقافية عامة، والأدب أحد اهتماماتها.

٤-الصحف تنشر صفحات وملاحق أدبية، ولكن يتعذّر ملاحقة الصحف بصفحاتها وملاحقها، لكثرتها وصعوبة تجليدها، وصعوبة إيجاد مكان لحفظها.

٥-فائدة المجلات الأدبية التي يدعو لإيجادها.

٦-دعوة النوادي الأدبية والجمعية السعودية للثقافة والفنون (نادي القصة السعودي) لنشر هذه المجلات الأدبية المقترحة.

وقد اشتملت مقالة "هل لدينا مجلات خاصة بالأدب؟" على مقدمة وعرض وخاتمة، وعرضت لموضوعها عرضا جيداً، يشهد لصاحبها بالقدرة على كتابة المقالة الأدبية الجيدة التي تتسم بالأصالة والتعبير عن الذات.

لكن هذه المقالة يعيبها شيئان:

الأول: أنها ليست قصيرة.

الثاني: وجود لفظتين أجنبيتين، هما "الأكاديمية" و"ببليوجرافيا".

ومن هذه المقالة، نختار هذه الفقرة: "والدعوة إلى إصدار مجلات خاصّة بالأدب وفنونه لا يُفهَم منه بخس بعض المجلات والدوريّات القائمة حقها، وأثرها في إنعاش الأدب في المملكة، بما تُخصصه من صفحات لنشر العديد من الأعمال والدراسات الأدبية والنقدية، غير أنها لا تستطيع أن تُخصِّص حيِّزاً أكبر للأدب؛ لأنَّ طابعها ثقافي عام، والثقافة ــ في معناها المتداول الشائع ــ الأخذ من كل علم وفن بطرف، وهي في اتخاذها هذا الطابع الثقافي العام تُركِّز على القاعدة العريضة في الانتشار،

والرَّواج في أوساط أكبر عدد ممكن من المثقفين والقــرّاء ذوي الميــول والرغبــات المتنوعة في أنواع القراءات والثقافات"([40]).

ومن نماذج هذه المقالة ــ أيضاً ــ مقالة "أدب المهجر الشرقي" للدكتور **محمد ابن عبد الرحمن الربيع**([41])، وهي تُثير قضية جديدة لم تُثَر من قبل، وهــي قضيــة "أدب المهجر الشرقي" أو "الأدب العربي المهاجر إلى الشرق والشرق الأقصى، أدب هؤلاء العرب الذين نزحوا إلى أندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافوا والهند".

وتتكون المقالة من مقدمة وعرض وخاتمة.

أ-فالمقدمة تحدّث فيها عن مصطلح "الأدب المهجري"، واقتصاره في دراسات النقّاد وكتابات الكتاب على الأدب الذي صاغه النصارى العــرب المــهاجرون إلى الأمريكتين، وبيَّن أنه أدب نصراني "مهما قيل عن طوابعه الإنســـانية، وانتماءاتــه العربية".

ب-العرض: تناول زيارة الكاتب إلى أندونيسيا، ومقابلته للعرب المــهاجرين إليها، وإشارته إلى ما خلفه العرب في أندونيسيا من أدب وشعر وصحف.

ج-الخاتمة: ووصل فيها إلى نتيجة بحثه عن وجود "أدب المهجر الشرقي"، كما نجد فيها دعوته الموجهة إلى طلاب الدراسات العليا بإعداد أطروحات علمية عن هذا الأدب المجهول.

وتتسم المقالة بروح البحث عن الجديد وعدم الركون إلى المسلّمات الأدبيــة، ويتضح ذلك من قوله: "وكنتُ دائماً أتساءل: هل اتجه كل المهاجرين العــرب إلى

([40]) السابق، ص٥٢.

([41]) د. محمد بن عبد الرحمن الربيع: خمائل وأزهار: بحــوث ومقــالات أدبيــة متنوعة، ط١، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٦هـ، ص١٨٤-١٨٦، وانظر نص المقالــة في كتاب د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص٢٤٠-٢٤٢.

الأمريكتين؟! أم تتجه طائفة أخرى إلى مهاجر أخرى؟! ولماذا يقصـــر اصطـلاح الأدب المهجري على تلك الفئة وذلك المكان؟!".

***

٧-المقالة الفلسفية

"وهي تعرض لشؤون الفكر والسياسة بالتحليل والتفسير، ومهمة الكاتب ــ فيها ــ صعبة، إذ عليه أن يُنقّب عن الأسس الحقيقية للموضوع، وعليه أن يعـــرض المادة بدقة ووضوح حتى لا يضل القارئ الطريق"([٤٢]).

"والمقالة الفلسفية لا تقف بالباحث عند المبادئ والأسس النظرية بعيداً عـــن حياة الناس، فقد يتجه صاحبها نحو الواقع ليتخذ من الدراسة الميدانيـــة والبحـــوث التجريبية والعلوم الاجتماعية عوناً له على التفسير والاستنتاج والحكم، أو إلى علماء الفلسفة ليجعل من فكرهم ــ لا حياتهم ــ محور البحث والدراسة، ومن ثم فـــهي تتطلّب من صاحبها أن يكون ذا فكر منظم، وقدرة على الوصول إلى اللباب دون أن ينخدع بالقشور، ومنهجية في تتبع الجزئيات وربطها بالكليات، ودقـــة في التعبـــير الدال على حقيقة ما يتناوله في جلاء"([٤٣]).

وتتسم المقالة الفلسفية بالأسلوب المنطقي الذي يُخاطب العقل، ويتكئ علـــى إقامة الأدلة التي تؤيِّد رأي الكاتب، والأدلة هنا تكون عقلية محضة.

ومن كتابها: **أحمد لطفي السيد، وعباس محمود العقاد، وأحمد أمين، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وزكي نجيب محمود، وفؤاد زكريا، وإمـــام عبـــد الفتاح إمام** ... وغيرهم

([٤٢]) د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص١٨٦.

([٤٣]) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقـــال فـــي الأدب المصـــري الحديـــث، ص٩٦،٩٧.

ومن الكتب التي جمعت مقالات فلسفية: "المنتخبات" **لأحمد لطفي السيد**، وفي "عالم الرؤيا" **لجبران خليل جبران**، و"نافذة على فلسفة العصر" للدكتور **زكي نجيب محمود**، و"بين الفلسفة والأدب" **لعلي أدهم**، و"خطاب إلى العقل العربي" للدكتور **فؤاد زكريا**.

ولميخائيل نعيمة بعض الكتب التي تفيض بالمقالات الفلسفية، ومنها "زاد المعاد" و"صوت العالم"، ونقف عند مقالة "في عالم الرؤيا" **لجبران خليل جبران**، وهي ترتكز على تأمل الحياة، وينطلق فيها **جبران** في تركيز شديد موضحاً مقومات الحياة الأساسية من خلال منظور رمزي؛ فالحب والتمرد والحرية أشباح ثلاثة يقفون على صخرة في البحر، وهم يُمثلون الحياة التي ينشدها **جبران**، فالحب يولده الجمال، والتمرد يوجده الحق، والحرية يُنمِّيها الفكر.

والأسلوب المنطقي يغلب على **جبران** في هذه المقالة، وذلك حين يبدأ في إبراز قيمة كل من الحب والتمرد والحرية في تجميل الحياة، فيقول على لسان الأشباح الثلاثة:

"الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار، والحب بغير الجمال كأزهار بغير عطر، والحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع، والتمرد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء، والحياةُ بغير الحرية كجسم بغير روح، والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة"(٤٤).

---

(٤٤) انظر المقالة في كتاب "في عالم الرؤيا: مجموعة مقالات" لجبران، ص ص٣-٥، وانظر تحليلها في كتاب "أدب المهجر" للدكتور صابر عبد الدايم، ط١، دار المعارف ١٩٩٣م، وانظر خصائص المقالة الفلسفية في كتاب د. صابر عبد الدايم: مقالات وبحوث في الأدب المعاصر، ص٧٨-١٤٦.

وبعد كل هذه المقدمات ينتهي إلى نتيجة مثمرة، وذلك حين تتجمع أصوات الأشباح، وتمتف: "الحب وما يُولِّده، والتمرد وما يوجده، والحرية وما تُنمِّيه ثلاثة مظاهر من الله، والله ضمير العالم العاقل".

ومن نماذج المقالة الفلسفية ما كتبه **محمود أمين العالم** تحت عنوان "أين آثار الفلسفة العربية الإسلامية في حياتنا المُعاصرة؟!" (٤٥)، وهذا نصُّه:

إن تراثنا الإسلامي يزخر بأرقى ما وصل إليه الفكر البشري من إضافات فكرية وفلسفية، ولقد استطاع وهج الفلسفة العربية الإسلامية أن يُضيء أوربا في عصور الظلام، وأن يُفجِّر عصراً جديداً للنهضة الفكرية والفلسفية والعلمية والأدبية في أوربا. وما كان أروع عالمنا وفيلسوفنا القديم وهو يقطع آلاف الفراسخ ويُواجه آلاف العقبات ويُعاني الفاقة والمحن ونزوات الحكام وتداول السلطات، دون أن يكل أو يمل عن مواصلة طريق الحقيقة. وما أعظم ما وصل إليه من حقائق باقية لا في الفلسفة التأملية الخالصة فحسب، بل في العلوم التجريبية كذلك في البصريات والفلك والطب والرياضة والاجتماع. بل كاد أن يُطل بأشواقه الفكرية على العقول الإلكترونية!

أين آثار هذه الفلسفة العريقة في حياتنا المُعاصرة؟ أين امتدادها الحي في ضمائرنا ووجداننا وأفكارنا؟

إن ما تبقّى منها رغم مياه دجلة وحملات النهب والإغارة والإهمال والتشتت كنوز غالية عزيزة، ولكنها مطمورة خلف الدراسات الفقهية، والتهميشات الشكلية، والتفسيرات البعيدة عن روح الجديد الدائم فيها.

---

(٤٥) محمود أمين العالم: معارك فكرية، ص ص١٠-١٢.

حقا هنا جهود عظيمة موفقة قام بها المستشرقون وأساتذتنا وعلماؤنا من أبناء شعبنا العربي وأمتنا الإسلامية من أجل إحياء هذا التراث وتحقيقه ونشره، إلا أنــه لم ينل بعد ما يستحقه من تفهم عميق وتفسير حضاري سليم.

فالحقيقة أن الفلسفة العربية الإسلامية ليست مجرد صدى لفلسـفة اليونـان والرومان كما يقول البعض، وليست مجرد توفيق بين الدين والفلسفة كمـا يقـول البعض الآخر، وإنما كانت تُعبِّر عن أشواق عصر، واحتياجات حضارة وقيم مجتمع جديد إلى جانب تأثرها بالروافد اليونانية أو الرومانية أو الهندية أو الفارسية. كانت الفلسفة العربية الإسلامية صدى للحياة العربية الإسلامية أساساً، وكانت معركة بين معارك هذه الحضارة الجديدة.

أين هذه الفلسفة من تاريخنا المعاصر؟ ومن بنائنا لحياتنا الجديدة؟ لم تُصبـح غذاء لنا، وما أقدرها على ذلك، بل أصبحت صنواً لكل ما هو مغرب ملغز، ولكل ما هو معقد وشكلي ومعزول عن الحياة. فإذا عرضته على الناس كان من حقهم أن يقولوا "بلاش فلسفة"! وما أحوجنا إلى إحياء تُراثنا الفلسفي القـديم، لا بتحقيـق النصوص فحسب، بل باكتشاف ما هو جوهري وإنساني وجديد فيها. وما أحوجنا أن يُصبح هذا التراث رافداً من روافد فكرنا المُعاصر وغذاءً لوجداننا الجديد.

على أن المأساة ليست مأساة تراث قديم لم يتم تقديمه وإشاعته بين النـاس، وإنما هي مأساة هذا التراث الفلسفي الحديث كذلك. إن عالم اليوم يزخر بـالعديد من الفلسفات، ولهذه الفلسفات أصداء في مجتمعنا، وأصداء في أفكارنا، وأصداء في ضمائرنا، وأصداء في مسلكك الشخصي أيها القارئ العنيد، أردت هذا أم لم تـرد كما ذكرت لك منذ قليل.

هناك فلسفات روحية، وأخرى علمية، وفلسفات وجودية وأخرى نفعية ... إلخ. وهناك تفريعات لا حدَّ لها على هذه الفلسفات، وهناك أزياء علمية تتزيّا بهـا فلسفات أبعد ما تكون عن العلم كالوضعية المنطقية والبراجماتية. وهناك فلسـفات

تنزيّا بزي الحرية، وهي لا تصلح سلاحاً بشريا للكفاح من أجل الحرية، بل لعلـــها تُفتِّت هذا الكفاح وتُشتته، كالوجودية.

وهناك فلسفات ثورية وأخرى تسد الطريق في وجــه الثـــورة، وهنـــاك في جامعاتنا أصداء لهذا كله في التربية والتاريخ والاقتصـــاد والأدب والفـــن والعلـــوم الطبيعية والرياضة والطب وعلم النفس والاجتماع ... إلخ.

فأين أنت من هذا كله، أين نحن من هذا كله؟ وأين هذا كله مـــن مجتمعنـــا وثورتنا وفلسفتنا الإنسانية الشاملة؟

ألسنا في حاجة كذلك إلى مراجعة هذا التراث الفلسفي الحديث في ضمائرنا وجامعاتنا ومسلكنا اليومي وأن نقف منه موقف التمحيص والنقد، وأن نُقيم لأنفسنا وجهة نظر شاملة مُتجانسة موضوعية عن الحياة والإنسان والعالم، حتى لا نقـــع في التخبط والتلقائية، وحتى لا نتورّط في نظرات جزئية قاصرة، وحتى لا تخنقنا فلسفات مريضة زائفة من حيث ندري ولا ندري.

***

٨-مقالة الصورة الشخصية

يُترجم فيها الكاتب صورة إنسان حي أو ميِّت، ويُبيِّن مدى التـــأثر والتأثـــير عنده، وجوانب التفوق وجوانب الإخفـــاق، ورأي النقّـــاد فيـــه، وصورتـــه في عصره[٤٦]. والكاتب لهذه المقالة يعتمد على حسن التنسيق، وجلال التعبير، حـــتى تبدو الشخصية الموصوفة كأنها تُحدِّثنا، فنعجب بها إذا راقتْنـــا، وننفـــر منـــها إذا ساءتْنا"[٤٧].

---

[٤٦] د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص١٩٥.

[٤٧] د. السيد مرسي أبو ذكري: المقال وتطوره فـــي الأدب المعـــاصر، ط١، دار المعارف (فرع الإسكندرية)، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص٥٧.

والفارق بين التاريخ ومقالة الصورة الشخصية "أن الأول سرد للوقائع والأحداث والمواقف والأعمال في حياة المترجم أو عالمه، وتقديمها في إطار علمي يقوم على الدقة والتفصيل والتحقيق وإحكام التنسيق وسلامة العرض، والثانية يأخذ الكاتب فيها من التاريخ المادة التي تُسعفه مع ما يتمتّع به من ثقافة وخبرة في أن "يُصوِّر لنا موقفاً إنسانيا خاصا من شخصية إنسانية، فيعكس لنا تأثره بها، وانطباعاته الخاصة عنها، ويُحاول أن يُخطط معالمها الإنسانية تخطيطاً فنيا واضحاً، مُعتمداً على التنسيق والاختيار، بحيث تتراءى لنا الشخصية الموصوفة وكأنها حية متحركة تُحدثنا ونُصغي لها، وتروقنا بعض صفاتها فنعجب بها أو تسوؤنا فننفر منها"(٤٨).

ومن كتاب هذا اللون من المقالة: **إبراهيم عبد القادر المازني**، و**عباس محمود العقاد**، و**عبد العزيز البشري**، و**محمود تيمور**، و**محمد رجب البيومي**، و**خيري شلبي**، و**محمد حسن عبد الله**، و**أحمد بهجت** ... وغيرهم.

ومن نماذج هذه المقالة ما كتبه الدكتور **محمد رجب البيومي** في كتابه "من صحائف التاريخ" تحت عنوان "قوة الإرادة"(٤٩)، وما كتبه الدكتور **محمد حسن عبد الله** عن **نجيب الكيلاني** بعنوان "ما أروع أن تقول بغير كلام"(٥٠)، وفي هذه المقالة يرسم صورة شخصية للمتَحَدَّث عنه، ويبدأ بمقدمة تُعرِّف القارئ على ملمح نفسي **لنجيب الكيلاني**:

"في صمتٍ جليل يليق برزانته رحل **نجيب الكيلاني**.

---

(٤٨) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٨٨.

(٤٩) انظر ما كتبناه عن هذه المقالة في كتابنا هذا تحت عنوان "البناء الفني للمقالة".

(٥٠) د. محمد حسن عبد الله: ما أروع أن تقول بغير كلام، أخبار الأدب، العدد (٨٩)، في ١٩٩٥/٣/٢٦م، ص٣١. وانظر نص المقالة في كتاب "التحرير الأدبي" للدكتور حسين علي محمد، ص ص١٩٦-٢٠٢.

أضع صورته أمامي. خمس سنوات لم يجمعنا لقاء. كل مناسبات حضـــوره في القلب كثيرة، مع كل ذكرى عزيزة كان يحضر. أسمع نبراتِ صوته الهادئ الحكيـــم حين تعصف من حولي شعارات هي طوفان من الجنون، تظن نفسها طوفان نوح!! ما كل هذا السلام في العينين؟ ومن أين جاءت هذه الوداعةُ في القسمات المصريـــة الصلبة؟".

ويتحدَّث عن علاقته بنجيب الكيلاني، ومراحل تطور هذه العلاقة، وكيـــف طلب نجيب منه أن يكتب له دراسة تُلحق برواية "الربيع العاصف"، ويذكر وظائفه، وظروف اعتقاله، وسفره للعمل بالخارج في الكويت، ثم الإمارات، ويذكر أسمـــاء مؤلفاته واهتمامه بقضية "الأدب الإسلامي".

ويُنهي مقالته بقوله:

"يا أخي وصديقي..

"هذا دوري .. آنَ أنْ أقول أنا لك هذه المرة: إلى اللقاء!!"

***

٩-مقالة السيرة الذاتية

وهي تلك المقالة التي يُسجِّل فيها الكاتب زاوية من زوايا حياته، أو يصوِّر فيها موقفاً من مواقف الحياة التي عاشها، مبيِّناً أثرها في تكوينه، كما قد يتحـدّث عـــن نجاح أصابه، أو إخفاق قابله.

ومن الأخطاء التي يقع فيها كاتب مقالة السيرة الذاتية "اعتماده على ذاكرته في استرجاع أحداث حياته، ومن المحتمل أن يفلت منه كثير من الوقائع الصغـــيرة ذات الدلائل الكبيرة، ومنها ميل كاتب السيرة الذاتية إلى تجنب ما لا يرضى عنـــه مـــن الوقائع التي تتصل بحياته العاطفية، أو تُبرز التناقض في شخصيته وافتقادها الصراحـــة

لذلك، ومنها حرص الكاتب على أن يقدم صورة متناسقة لحياته من أولها إلى آخرها مما يضر بعنصر الصدق" ([٥١]).

ومن ثم فهي تتطلب من كاتبها "الحرص على الصراحة والصدق في تقديم نفسه للآخرين، والقدرة على التصوير الحي المُترابط، ودقة المُلاحظة على شخصيته، ومحاولة التجرد من الرابطة العاطفية التي تشده إليها" ([٥٢]).

ومن كتاب مقالة السيرة الذاتية: **عباس محمود العقاد**، **وأحمد أمين**، **وزكي مبارك**، **وعبد العزيز الرفاعي**، **ووديع فلسطين**، **وأنيس منصور** ... وغيرهم.

وقد أتاحت مجلة "الفيصل" للكتاب أن يكتبوا بابا بعنوان "من تجاربهم"، كما أتاحت مجلة "الهلال" باباً بعنوان "التكوين". وقد اخترنا من نماذج مقالة السيرة الذاتية ماكتبه في مجلة "الفيصل" **وديع فلسطين** تحت عنوان "تجربتي في الصحافة" ([٥٣])، وما كتبه في "المجلة العربية" **عبد العزيز الرفاعي** تحت عنوان "أمي".

***

٩٠–المقالة العلمية

"تُعنى بمعالجة قضية من قضايا العلم، كأن تتحدّث عن نظرية في الطب، أو الجبر، أو الهندسة، أو الكيمياء، أو الفيزياء، أو الطبيعيات، أو تعرض ما وصلت إليه هذه العلوم، أو تُعرِّف الناس بالمكتشفات العلمية الحديثة، أو تُحاول توضيح المرتكزات التي ترتكز عليها الأبحاث العلمية عامة" ([٥٤]).

([٥١]) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٨٩. (بتصرف يسير).

([٥٢]) السابق، ص٩٠.

([٥٣]) انظر المقالتين في المختارات.

([٥٤]) أحمد أبو حاقة: البلاغة والتحليل الأدبي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، مارس ١٩٨٨م، ص٢٩٩.

وهذا اللون من المقالات تتطلب المعالجة الكتابية فيه عدة أمور، منها: حسن الاستعداد أو الإلمام بقواعد العلم في المسألة التي يتعرّض لها الكاتب ومناهجه في البحث والتناول، ومنها اتباع الأصول العلمية في الكتابة من سلامة العرض وصحة الاستدلال، ووضوح الفكرة، وترتيب المقدمات، والوقوف على حقيقة المصطلحات العلمية، ومنها: وقوف الباحث خلف موضوعه يعرضه في موضوعية وعمق وفي عبارة لا تعرف التموج والخيال المجنح، ومنها: الحرص على خطاب عقل القارئ، وتيسير الموضوع، دون أن يضر ذلك بجوهر الحقيقة العلمية"(٥٥).

ومن كتاب المقالة العلمية: **فؤاد صرُّوف، وأحمد زكي، وعبد الحليم منتصر، وسعد شعبان،** ورجب **سعد السيد، ومحمد عبد القادر الفقي** .. وغيرهم.

"ومن المجلات التي كانت تخصص قسما منها في كل عدد للمقالات العلمية مجلة "المقتطف" (١٨٧٦-١٩٥٢م)، وقد تبعتها في ذلك بعض المجلات الثقافية، مثل "العربي" في الكويت، و"الفيصل" و"المجلة العربية" و"الخفجي" و"القافلة" في السعودية، و"الدوحة" في قطر، و"الثقافة العربية" في ليبيا، و"البحرين الثقافية" في البحرين ... وغيرها"(٥٦).

ومن نماذج المقالة العلمية ما كتبه الدكتور **محمد علي شيخ مشاعل** في مجلة "المنتدى" الإماراتية تحت عنوان "الهزات الأرضية والتفجيرات النووية"، وقد بدأها بمقدمة قال فيها: "تتركز الأبحاث المتطورة في علم الزلازل لدى الدول المتقدمة التي تعرّضت ومازالت تتعرّض إلى زلازل مدمرة (مثل اليابان وأمريكا) على إمكانية التنبؤ المبكر بالزلازل، بهدف الحدِّ من الأضرار المادية والمعنوية على سطح الأرض أو تحت

---

(٥٥) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٩٧،٩٨.

(٥٦) د. حسين علي محمد: التحرير الأدبي، ص١٩١.

سطحها. من ناحية أخرى يهدف الباحثون إلى دراسة كشف طبيعة وأسباب الهزات الأرضية، والوقوف على طاقتها المدمرة، وتحديد مراكزها في نطاقات الكرة الأرضية وتفريقها عن الاهتزازات الناتجة عن التفجيرات النووية"(٥٧).

ثم تحدّث في فقرات عن:

١-تعريف الزلازل.

٢-تصنيف الزلازل.

٣-طبيعة الزلازل وأسبابها.

٤-ماهية الأمواج الزلزالية وانتشارها.

٥-الشدة الزلزالية.

٦-الزلازل في الوطن العربي.

٧-كيف تتصرَّف أثناء شعورك بالزلازل؟

***

١١-المقالة التاريخية

وهي المقالة التي "تُعنى بتناول الأحداث والمواقف والأشخاص والعصور والثورات التاريخية بالدرس والتمحيص، وعرض جوانبها في نظرات تحليلية كاشفة، وهي تختلف عن رسم الصورة الشخصية باتساع دائرة البحث واختلاف المنحى في التناول"(٥٨).

وعلى كاتب المقالة التاريخية أن يجمع المادة من مظالها الرئيسة، وأن يُدقِّق فيها، ويكون صادقاً في تصويره، أميناً في سوق الأحداث واستخلاص نتائجها، فلا يلوي

---

(٥٧) د. محمد علي شيخ مشاعل: الهزات الأرضية والتفجيرات النووية، المنتدى، العدد (١٨٤)، نوفمبر ١٩٩٨م، ص٤٦ وما بعدها.

(٥٨) د. أحمد محمد علي حنطور: فن المقال في الأدب المصري الحديث، ص٩٨.

عنق الحقيقة، ولا يُوجِّه الأحداث وجهة خاصة لتخدم هدفاً معيناً أو قضية خاصة ينتصر لها!

"وكاتب المقالة التاريخية ليس مؤرخاً فحسب، وإنما هو أديب يبسط التاريخ صفحة ناطقة أمام القارئ، ومن ثم فهو يميل إلى الوضوح في العبارة، ويتحرّى الدقة في الوصف، وينشد الصحة في التصوير وتقديم حركة التاريخ في لوحات تسجيلية حية تكشف عن حقيقة الأيام وعبر التاريخ"([٥٩]).

ومن كتابها: **عباس محمود العقاد، ومحمد حسين هيكل، وعثمان أمين، ومحمد عبد الغني حسن، وأحمد الشرباصي، ومحمد رجب البيومي، ومحمد عبد الواحد حجازي** ... وغيرهم.

ومن نماذج المقالة التاريخية ما كتبه الدكتور **أحمد بن عبد الله الباتلي** تحت عنوان "استتباب الأمن في عهد الملك عبد العزيز"([٦٠])، وهذا نصُّها:

"كان الأمن قبل تولي الملك **عبد العزيز** مضطرباً، وكان الناس في خوف وقلق، لا سيما عند السفر للتجارة أو للحج، وكان الناس يضطرون لدفع ضرائب لبعض القبائل ليأمنوا جانبهم، وليؤمنوهم من قطاع الطريق في منطقتهم، وكان الحجاج يُعانون من سرقة أموالهم وأمتعتهم. لكن ما إن تولّى الملك **عبد العزيز** حتى صار أول اهتماماته الموفقة العمل على استتباب الأمن، والقضاء على الاضطراب والقلاقل، وشدّد قبضته على قطّاع الطرق، فطبّق في حقهم شرع الله عز وجل بقرار من القضاء الشرعي بالقصاص أو التعزير حسب جرمهم وعقوبتهم الشرعية، فتناقصت الجرائم، وتلاشت السرقات شيئا فشيئا حتى طهّر جلالة الملك **عبد العزيز** المملكة من الشرور والجرائم، وجعلها بحمد الله واحة أمان واطمئنان، بفضل الله

([٥٩]) السابق، ص٩٨.

([٦٠]) نشرت في جريدة "الرياض"، العدد (١١٠٧١)، في ١٤١٩/٦/٢٦هـ، ص٢٦.

تعالى، ثم بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء، فصارت مضرب المثل في الأمـــن، وصار الناس يُسافرون من أقصى شمال المملكة إلى جنوبها لا يخشون إلا الله تعالى.

بل وصل الأمن في المملكة إلى أن الحجاج يندهشون في مكة حين يرون المتاجر والمحلات التجارية مفتوحة الأبواب ولا تغلق ليلاً، ولا نهاراً، ويترك الباعة بضائعهم في أماكنها ويذهبون للصلاة دون خوف عليها، بل انتشرت بين الحجاج قصـــص رائعة عن الأمن في المملكة.

فقد ذكر الأستاذ **خير الدين الزركلي** وهو أستاذ وأديب عاصر الملك **عبـــد العزيز** وعمل معه وزيراً ثم سفيراً، وألّف في سيرته كتاب "الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز" ص١٠٣، أن تلك القصص صارت كالأعاجيب بين الحجاج؛ فرجل سقطت حقيبته في الطريق بين مكة والمدينة، ولم يلبث أن قرأ في جريدة "أم القـــرى" خـــبر العثور عليها ودعوة صاحبها لتسلُّمها، وآخر سقط ماله في أحد شوارع مكة فعـــاد فوجده كما سقط لم ينقص منه شيء، وجعل الملك عبد العزيز رجالاً يسهرون على راحة الناس، وهم رجال الأمن العام، مؤلفة من إدارات وأقسام ومراكـــز شرطـــة موزّعة في أنحاء المملكة، وساعد على ذلك حرص الملك **عبد العزيز** علـــى تعليـــم الناس، وغرس الدين في نفوسهم ليردعهم عن الحرمات والسرقات والاعتداء علـــى النفوس، كما أنه عمل على توفير وسائل الزراعة ليعمل بها الناس ويكسبوا من كـــدّ أيديهم من الثمار الحلال، بالمال الحلال.

فالحمدُ لله الذي نشر الأمن والأمان في بلاد الحرمين الشريفين.

المراجع:

١-حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، لرابح لطفي جمعة.

٢-الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، لخير الدين الزركلي.

٣-سياسة الملك عبد العزيز لحفظ الأمن، لحسن ساعاتي".

ومن الملاحظ على هذه المقالة ما يلي:

١-أنها تتناول حدثا حيا ملحا؛ فقد كانت المملكة العربية السعودية تحتفل في عام ١٤١٩هـ بمئوية التأسيس، وقد جاءت هذه المقالة في سياق الاحتفالات بذكرى الملك المؤسس **عبد العزيز آل سعود**.

٢-لغتها بسيطة قريبة من الأفهام.

٣-قد تذكر المقالة التاريخية بعض المراجع التي رجعت لها، موثقة ذلك بالطبعة ورقم الصفحة، ومع ذلك فنحن نأخذ على هذه المقالة أنها ذكرت مراجع لها في النهاية، وكان من الممكن أن يُدخلها في فقرة من مقالته كأن يقول مثلاً: "وقد تكلم عن استتباب الأمن في عهد الملك **عبد العزيز** بعض الكتاب الذين تناولوا سيرته، أو أرّخوا له، ومنهم ..." ثم يذكر أسماء هذه الكتب وكتابها.

***

يقول الدكتور **محمد العوين** عن الخاطرة إنها "فن مستقل عن المقالة الأدبية، له سماته وخصائصه، تأخذ الخاطرة من المقالة الأدبية نسيجها البنائي المحكم، ووضوح شخصية كاتبها، وتبتعد عنها في كونها اجتزاء لفكرة عابرة غير مكتملة، أو التقاطاً لصورة خاطفة مرَّت بالذهن، فليس فيها عمق، ولا سعي إلى الإلمام بما يعرضه الكاتب من رؤى"([٦١])، ويمكننا اعتبار الخاطرة مقالة قصيرة تتناول فكرة واحدة بطريقة مركزة شائقة، وبأسلوب واضح، وعبارة سهلة.

وأحيانا يختار الكاتب لخاطرته القصيرة هذا عنواناً ثابتاً، مثل "فكرة" **لعلي أمين**، و"ما قل ودل" **لأحمد الصاوي محمد**، و"نحو النور" **لمحمد زكي عبد القادر**، و"قطر الندى" **لعبد المنعم الصاوي**، و"صواريخ" **لإبراهيم الورداني**، و"صندوق الدنيا" **لأحمد بهجت**، و"مواقف" **لأنيس منصور**، و"رؤى وآفاق" **لعبد العزيز الفيصل**. و **"عيون وآذان" لجهاد الخازن** .

وفي كل خاطرة من هذه الخواطر القصيرة يعرض الكاتب ناحية من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الدينية، (وقد يطلق البعض على هذا النوع من الخواطر "مقالة العمود الصحفي")، وهو بالطبع يختلف عن المقال الطويل الذي يتراوح بين صفحتين وعشر صفحات، في موضوع يعرضه الكاتب عرضاً شائقاً، بلغة سهلة واضحة، محققاً عنصر الإمتاع.

وتختلف الخاطرة باختلاف وسيلة نشرها؛ فما يُنشر للعامة في الصحف اليومية يختلف عما ينشر للخاصة في المجلات الثقافية أو المتخصصة.

([٦١]) د. محمد العوين: المقالة في الأدب السعودي الحديث ٢٣٢/١.

ومن كتاب الخاطرة المتميزين **علي أمين** فيما كان يكتبه شهريا في الستينيّات الميلادية كل شهر في مجلة "الهلال" (تحت عنوان "فكرة")، حينما كان رئيساً لتحريرها، ومنه ما يكتبه **جهاد الخازن** في جريدة "الحياة" يوميا تحت عنوان "عيون وآذان"، و**محمد عمارة** في "الشرق الأوسط"، ومنه هذه الخاطرة التي كتبها تحت عنوان "مثقفون بلا عمل"، وهذا نصُّها:

في بلادنا قطاع من "المثقفين" ينطبق على كل واحد منهم وصف "مثقف خال شغل"! فهو يجلس إلى مكتبه في انتظار "المقاول الخواجة" الذي يعهد إليه بالعمل، بعد أن يصك له المصطلحات، ويُحدِّد له مفاهيم هذه المصطلحات، وقد يتعهّد له ـــ أيضا ـــ بالتمويل.

ولقد ظهرت هذه الحالة في بلادنا من بداية التغريب في واقعنا الثقافي. لقد قال "الخواجة" لهذا المثقف "خالي الشغل": إن عندنا "حداثة"، فأخذ يُبشِّر بالحداثة، ثم قال له: دع الحداثة، فلقد أصبحنا في مرحلة ما بعد الحداثة، فأخذ يُبشِّر بما بعد الحداثة، رغم أنه لم يحقق الحداثة!

وكذلك حدثت "المقاولات" مع مصطلحات ومفاهيم "الأصولية" و"التنوير" و"البنيوية" .. إلخ إلخ! وعندما صكّت الهيمنة الغربية مصطلح "العولمة"، وصدّرته إلى بلادنا وسائلُ الإعلام الغربية تمايزت المواقف من هذا الوافد الغربي الجديد.

فالمثقف العربي ـــ "خالي الشغل" ـــ الذي يمثّل دور فئران المكتبات، فيعيش على الصور الذهنية والتجريدية، دون تعمُّق في الواقع العربي والإسلامي ـــ وبخاصة ذلك الصنف الكاره لهويتنا الإسلامية ـــ لم ير في هذه "العولمة" إلا أن العالم قد أصبح قرية صغيرة، تعيش على الاعتماد المتبادل، وأنها بذلك قد غدت قطاراً واحداً هو قطار العولمة، من لم يركبه فقد حكم على نفسه بمصير الهنود الحمر! ولقد كتب واحد من هؤلاء المثقفين يقول: إن العولمة هي ظاهرة التوحيد الثقافي والاقتصادي

التي يشهدها عالم اليوم .. وأن الحداثة الغربية عموماً، والعولمة المعاصرة خصوصاً، وما أفرزته من ثقافة، في طريقها إلى أن تُصبح ثقافة عالمية أو كونية شاملة، بكل ما في الكلمة من معنى، فلا شيء قادر على الوقوف في طريقها، ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئاً أمام ثقافة العولمة، التي لا تصدها الحدود، أحببنا ذلك أو كرهنا، وافقنا أو رفضنا"!

هكذا استقبل "المثقف النظري التجريدي – خالي الشغل" – مصطلح "العولمة" وظاهرتها، ونسي – بعد أن عهد إليه المقاول الخواجة بهذه "المقاولة" الجديدة، أنه قد عاش عقوداً طويلة، يُصدِّع رؤوسنا بالمقاولات السابقة عن "التعددية"، وضرورة الاعتراف "بالآخر"، وجمال "الليبرالية"، وبؤس الفكر الظلامي الذي يؤمن أصحابه بواحدية الحقيقة .. نسي كلَّ ذلك، وأخذ يُبشِّر "بالمقاولة" الجديدة، داعياً إلى إلغاء التنوُّع والتعدد؛ فالمقاول – الخواجة – قد قرَّر صبَّ العالم كلِّه في ثقافة العولمة، وما علينا إلا الانصياع والتقليد"([٦٢]).

ومن الملاحظ على هذه الخاطرة ما يلي:

١-أنها تتناول أمراً ملحا وحاضراً، وهو أمر المثقف العربي "خالي الشغل"، المنبهر بالغرب، الذي يقوم بمؤازرة العدو في محاولة الغزو الفكري لنا.

٢-تدور الخاطرة حول فكرة محورية واحدة، حاول الكاتب أن يُوصِّلها للقارئ في كلماته القليلة.

٣-تكاد تخلو الخاطرة السابقة من المحسنات البيانية والبديعية، فما يهتم به الكاتب هو طرح الفكرة فحسب، لأنه يكتب خاطرته في صحيفة يومية، ويتوجَّه بها للقارئ العادي.

([٦٢]) د. محمد عمارة: مثقفون بلاعمل، الشرق الأوسط، العدد (٧٦٤٣)، في ١/١١/١٩٩٩م، ص١٦.

٤-تمتلئ الخاطرة بالأقواس الصغيرة حول الكلمات التي يريد التركيز عليها، مثل "الحداثة"، و"البنيوية"، و"العولمة" ... وغيرها.

٥-يستعمل الكاتب الجمل المعترضة بين الشرطتين كثيراً، لتوضيح ما يهدف إليه.

٦-يعيب هذه الخاطرة استعماله لكلمة "الخواجة" (يقصد الأجنبي)، وكان يمكنه أن يستخدم لفظة عربية بدلا منها.

*

وتختلف الخاطرة عن المقالة الأدبية؛ "فالخاطرة ليست وليدة فكرة ناضجة من زمن بعيد، ولكنها فكرة عارضة طارئة، وليست فكرة تعرض من كل الوجوه، بل هي مجرد لمحة، وليست كالمقالة مجالاً للأخذ والرد، ولا هي تحتاج إلى الأسانيد والحجج القوية لإثبات صدقها، بل هي أقرب إلى الطابع الغنائي ... ثم لا ننس الاختلاف في الطول، فالخاطرة أقصر من المقالة، وهي لا تُجاوز نصف عمود من الصحيفة، وعموداً من المجلة"(٦٣).

ومن الخاطرة ما كتبته **مي زيادة** تحت عنوان "تحية الربيع"(٦٤)، وفيها تقول:

الليل يقصر والنهار يطول، قليلاً قليلاً تنقشع الغيوم فتنجلي زرقة السماء، وتلتمس الإشعاع والأضواء.

الصبح ينشقُّ عموده مكللاً بلألاء الفجرِ الحنون، والمساء تترامى ظلالُه مفعمةً بأشواق الغرام، ويحلُّ الليلُ فتُصغي النجومُ إلى الصوتِ الرهيبِ المجهول ــ صوتِ البقاءِ هازجاً في فلواتِ اللانهاية!

---

(٦٣) د. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨م، ص٢٩٢.

(٦٤) د. عبد الباسط حمودة: النثر الفني المصري في العصر الحديث، دار الرسالة للطباعة، القاهرة ١٩٨١م، ص٨٣.

أليست هذه بشائرُ قدومك يا أيها الربيع؟

الطبيعةُ تختلجُ مشرقةً، وتترنّحُ ثملى لاستقبالِ الموسمِ الفتّان، هذا هو مارس تخصص البراعم وتنور الكمائم، وأبريل ذو الطلعة المجلوة الوضاحة، ومايو نجيُّ الطيور وأليف العطور، ويونيو خلاقُ الفل والياسمين، عين الوهج اللواعج في موكب الشهور الحبيبة.

أوليست هذه شهورك أيها الربيع؟!".

ومن الملاحظ على الخاطرة السابقة أنها من التأمل الذاتي الذي يقترب من الشعر الوجداني، وهي قصيرة نوعاً ما، وتمتلئ بالأخيلة التي توضِّح الفكرة، وتقرب العاطفة الجيّاشة نحو الربيع من القارئ، وجملها تتنوع بين الإنشاء والخبر، وبين الجملة الفعلية والاسمية، والقصر والطول.

ومن الخاطرة الأدبية أيضا ما كتبته **نوال عبده ميهوب** (٦٥) تحت عنوان "إلى النفس"، وفيها تقول:

كفاك يا نفسُ كل هذه المعاناة .. كفاك يا نفس مشارط القدر وقد أدْمت مني الفؤاد .. دعيني أُلمِلم قواي! .. دعيني أُكفكف أدمعي! دعيني أرى شمس النهار بعد ما توارتْ خلف الغيوم.

يا نفسُ .. لَمَ تبكين .. ولِم هذه الدموع والأنين؟ لِم كل هذا الحزن الدفين؟ .. ولماذا الفرحُ عليكِ ضنين؟ .. ولماذا القلبُ دائماً حزين؟ .. ألا تفرحين؟ .. ألا تضحكين؟ ..

---

(٦٥) طالبة بمركز الطالبات ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المستوى الثامن ١٤١٩/١٤٢٠هـ.

متى أستطيعُ التخلص منكِ أيتها النفس المتمردة في أعماقي؟ .. شقِيتُ بــــك سنين طويلة .. أعرفُ أنك محمومة .. وليس لكِ في هذا الزمن دواء .. إن بقيتِ يا نفسُ هكذا ـــ وأعلمُ أنك سوف تبقين ـــ فكلُّ شيءٍ بقَدَر.

كما كتبت تحت عنوان "إلى مدرَسَتي"، تقول:

يا مدرسَتي ..الذكرياتُ كنزٌ دفين .. لا تضيعُ ولا تُمحى بمرورِ الســـنين ..آه كمْ أتوقُ في هذه اللحظةِ بالذات أن أُبعِد كلَّ حواجزِ الزمانِ والمكان وأذهبُ إليكِ سريعاً، وأُلقي نفسي بين أحضانك .. حيثُ ملاعبُ أقراني وأترابي .. وأُنزِلُ دمعـــاً كنتُ قدْ خبّأتُهُ عندَ الفراق .. وأحكي لكِ كمْ أحسسْتُ بالغُربةِ بعيـــداً عنـــكِ .. كأني إنسانٌ بلا ماضٍ .. فالماضي عندي هو ذكرياتي التي تركتُها معكِ يومَ الرحيل!

مقالات مختارة

١-يوم العيد

لمصطفى لطفي المنفلوطي ([٦٦])

أفضل ما سمعتُ في باب المروءة والإحسان أنَّ امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يُطوِّقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً، لا لأنها غريرةٌ بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفزُّ الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد، كما وعدته، فأخذت تُساوم صاحب الحانوت فيه ساعة، والرجل يُغالي به مغالاة شديدة، حتى علمت أنها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة التي لا يُقدِّرها إلاّ من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم، وفؤاداً مُستطاراً كفؤادها، إلى أن تمدَّ يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيثُ تظنُّ أن الرجل لا يراها، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعتْ أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين: خفقةَ الخوف من عاقبة فِعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستُقدِّمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها.

([٦٦]) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات (ج٣)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م، ص ص٦٣-٦٦.

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحِدَّة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسَّم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها، ثم تركها وشأنها، وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور، فهجم الجنديان على الأم واعتقلاها، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظمى، لا على التمثال الذي انتُزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت كلمة نطقَ بها وهو جاثٍ بين يدي الرجل: رُحماكَ بأمي يا مولاي!، وظل يبكي بكاءً شديداً.

جمدَ الرجلُ أمام المنظر المؤثِّر، وأطرق إطراقاً طويلاً، وإنه لكذلك إذ دقَّت أجراسُ الكنائس مُؤذنةً بإشراقِ فجر العيد، فانتفض انتفاضةً شديدةً، وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً، فالتفت إلى الجنديَيْن وقال لهما: أظن أنّي أخطأتُ في اتهام هذه المرأة، فإني لا أبيعُ هذا النوعَ من التماثيل، فانصرفا لشأنهما، والتفتَ هو إلى الولد فاستغفرهُ ذنبَه إليه وإلى إمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضلَه ومروءته، وجبينها يرفضُّ عَرَقاً حياءً من فعلتها، و لم يُفارقْهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعلَ عيدهما أسعدَ وأهْنأَ مّما كانا يظُنَّان.

*

لا تأتي ليلةُ العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود ونجم نحوس؛ أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرّتهم، تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء، وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلهم على مثل جمر الغضا، يئنون في فراشهم أنيناً يتصدَّع له القلب، ويذوب له الصخر، حزناً على أولادهم الواقفين بين

أيديهم، يسألونهم بألسنتهم وأعينهم: ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يُفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يُزينون بها مناضدهم؟ فيُعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدُّوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البرِّ والمعروف، ويُفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل ممّا أعطاهم ليُسجِّلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجّل لصاحب حانوت التماثيل.

إنَّ رجلاً لا يؤمنُ بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيعُ أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في العيد، في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال، دامعة العين أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهنَّ على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنوِّ عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يُوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المُترقرقة في عينيها.

حسب البؤساء من محنِ الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقلَّ من أن يتمتَّعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة أو مرتين.

٢-ثقافة

لطه حسين[١٧]

كلمة نردِّدها كل يوم فيما نقول ونكتب، وقليل منــا يُحققــها في ذهنــه، ويستطيع أن يعرب إعراباً دقيقاً عن معناها، شأنها في ذلك شأن ألفاظ كثيرة تنطلق بها الألسنة وتجري بها الأقلام، وليس لها في نفوس الذين ينطقون بها معنى واضح، أو صورة لا أقول دقيقة، بل مُقاربة. وأي لفظ أكثر تردداً في الأفواه وجريانــاً علــى الأقلام من لفظ الأدب والفن؟. فسلْ إن شئت بعض الذين ينطقون بهاتين الكلمتين عمّا يريد بأيتهما أو بكلتيهما فستسمع ما يسوؤك غالباً، وما يُرضيك أحيانا؛ ذلك لأن هذه الكلمات ـــ الثقافة والأدب والفن ـــ قد ابتُذلت في الاســتعمال العــام، وكثُر ترديدها في الخطب والكتب وفي مقالات الصحف وأنبائها؛ ففقدت أو كادت تفقد معانيها، وأصبح كل من يحسن كتابة هذا الكلام الذي تنشره الصحف أديبــاً، وكل من أسمعك صوتاً فيه شيء من توقيع، أو أراك صورة أو شيئا يُشبه الصورة، أو لعب أمامك على المسرح، أو أراك صورة تلعب في دار من دور السينما ـــ أصبــح كل من فعل شيئاً من هذا ـــ صاحبَ فن أو صاحب أدب، وهو بالطبع مثقف لأن الأدب والفن بطبعهما ثقافة!

وكذلك يُصبح الكاتبون في الصحف ـــ مهما تكن الموضوعات التي يكتبونها، ومهما تكن اللغة التي يكتبون بها، ومهما تكن المعاني التي يؤدونها إليك ـــ أدبــاء، ويصبح كلامهم أدباً، والذين يضحكونك بتهريجهم في ملعب من ملاعب التمثيل أو دار من دور السينما فنانين لا يتردّدون في أن يصفوا أنفسهم بذلك، وفي أن يملؤوا به أفواههم، وفي أن يُرتبوا لأنفسهم من أجل ذلك حقوقاً عليك وعليَّ وعلى النـــاس

(١٧) طه حسين: ثقافة، مجلة "المجلة"، العدد السابع، يولية ١٩٥٧، ص ص٣-٩.

جميعاً وعلى الدولة. ومع ذلك فقد رأينا مصر في بعض عصورها القريبة تُفرِّق بين الصحفي والأديب، وبين المُهرِّج والممثل، وبين المطرب والمغني أو الموسيقيِّ، وما نزال نراها تُفرِّق بين من برع في الأدب أو في الفن، ومن برع في صناعة من الصناعات اليدوية و لم يُحسن قراءةً ولا كتابةً ولا علماً نظريا بأصول ما يصنع بيديه: ترى أحدهما قد أوتي حظا من ثقافة، وترى الآخر صانعاً ماهراً قد حُرِم الثقافة، و لم يؤت منها حظا قليلاً أوْ كثيراً. وليس بُدٌّ مع ذلك من كلمة الحق أن تُقال، ولأمور الثقافة وشؤون الأدب والفن من أن تؤخذ مأخذ الجد إن أردنا لهذا الوطن أن يرقى وأن يُسهِم في الحضارة الإنسانية إسهاماً صحيحاً.

وكلمة الثقافة في أصلها اللغوي القديم كانت يسيرة تستعمل فيما ليس بينه وبين معناه الذي نفهمه منها الآن صلة قريبة أو بعيدة، تُستعمل في المهارة التي تكون في بعض الصناعات، وفي تقويم المعوجّ من الأدوات المادية بنوع خاص.

فكان يقال: ثقَّف الرمح، ويُراد: قوَّمه ونفى عنه الاعوجاج وجعله أداة صالحة من أدوات الحرب؛ ثم اتسع معناها شيئاً، فأصبح المهارة في صناعة بعينها من الصناعات، ولا سيما حين تكون هذه الصناعة دقيقة تحتاج إلى الذكاء والفطنة:

فالتفريق بين الدينار البهرجي المزيف والدينار النقي الصحيح ثقافة، والصيرفي الذي يحسن ذلك رجل مثقف أو ثقف. ثم تجاوزت هذا المعنى، وانتقلت إلى معنى يتصل بحياة العقل والذوق.

فكان يُقال للرجل الذي يُحسن العلم بالشعر فيفرِّق بين جيده ورديئه، وبين الصحيح الثبت منه والمنحول المزيف — مثقف أو ثقف، وكانت صناعته ثقافة. وعسى أن يكون **محمد بن سلاَّم الجُمحي** الذي توفي في أوائل القرن الثالث الهجرة أول من استعمل هذه الكلمة بهذا المعنى في كتابه "طبقات الشعراء". ثم اتسع معنى هذه الكلمة فأصبح المهارة في كل علم من علوم العقل أو كل فن من فنون الذوق، ثم أهملت الكلمة ونسيت أو كادت تنسى حتى كان هذا العصر الحديث فاستعملت

أثناء النهضة المصرية الأخيرة بين الحربين العالميتين ليؤدّى بها معنى الكلمة الفرنسية (culture). وقد جرى على الكلمة الفرنسية نفسها شيء يُشبه ما جرى على الكلمة العربية؛ فكان استعمالها الأول في شيء مادي هو الزراعة، ثم جعل المعنى يتطوّر حتى أصبح يدل على معناه الحديث الذي نستعمل فيه نحن كلمة الثقافة الآن، وهو الذي نريد أن نقف عنده وقفة فيها شيء من تعمق وتفصيل.

فالرجل المثقف الآن بهذا المعنى ليس هو من أتقن علماً بعينه أو فنا بعينه، وإنما هو أوسع من ذلك وأشمل، هو الرجل الذي ذاق ألوان المعرفة على اختلافها حتى ذكا قلبع وصفا ذوقه وهذب طبعه، ونفذت بصيرته، وأصبح عقله قادراً على أن يفهم عنك حين تتحدّث إليه في أي لون من ألوان المعرفة، وأصبح عقله قادراً أيضاً على أن ينفي عن نفسه الشعور بالغربة حين يسمع حديث العلماء في علومهم، أو حديث أصحاب الفن في فنونهم، أو حديث الساسة والاقتصاديين في سياستهم واقتصادهم. والرجل المثقف هو الذي ذاق المعرفة وأحبها وتأثّر بها، وتميّأ لها فأصبح إنساناً بأوسع معاني هذه الكلمة، إنساناً لا يحس الغربة في أي وطن من أوطان الناس أو بيئة من بيئاتهم، ولا يجد القلق حين يسمع الناس يتحدثون في أي ضرب من ضروب الحديث؛ يفهم عنهم أحياناً فيخوض معهم فيما يخوضون فيه، ولا يفهم عنهم أحياناً أخرى فلا يوئسه ذلك منهم ولا من نفسه، وإنما يحاول أن يعرفهم وأن يفهم عنهم وأن يحقق الصلة بينه وبينهم، بعقله وقلبه وذوقه، عارفاً مرة ومنكراً مرة أخرى، راضياً حيناً وكارهاً حيناً آخر.

الرجل المثقف هو الذي لا ينبو عنه وطن ولا مكان ولا بيئة من أوطان الناس وأماكنهم وبيئاتهم، ومن أوطان الطبيعة وأماكنها وبيئتها وأوطانها المختلفة، هو الرجل الذي يحس من نفسه القدرة على أن يعيش في كل وطن، وفي كل ظرف من الظروف عيشة الفاهم لما يرى القادر على محاولة فهم ما لم يفهم.

والرجل المثقف آخر الأمر هو الذي أخذ من العلوم والفنون بأطراف تتيح له أن يحكم على الأشياء حكماً صحيحاً أو مقارباً. والتعليم هو سبيل هـذه الثقافة، التعليم بمعناه الواسع الذي يفهمه الناس في هذه الأيام ويتيحونه للصبية أولاً، وللشباب ثانيا فيما ينشؤون لهم من المدارس ومعاهد العلم والتعليم الذي يكسبه الناس لأنفسهم بعد أن يأخذوا بحظهم من هذه المعرفة التي تُقَدَّم لهم في المدارس والمعاهد.

وأخص صفات الثقافة أنها ناقصة دائماً محتاجة إلى أن تزيد في كل لحظة، وأن صاحبها قلق دائماً، طامح إلى التزيد من المعرفة دائماً، لا يقنع بما يُتاح له من العلم مهما يكثر ومهما يعمق ومهما يتسع، لأنه مستيقن هذا الأصل من أصول الثقافة الصحيحة، والذي جاء في القرآن الكريم، وهو أن فوق كل ذي علم عليم.

وصاحب الثقافة محقق، لحاجته هذه إلى التزيُّد من المعرفة، ومحقق، لأن في الناس من هو أكثر منه معرفة؛ وهو من أجل ذلك متواضع دائماً لا يرضى عن نفسه، وإنما يطمح أبداً إلى أن يكون في غده خيراً منه في يومه.

ويظهر الفرق جليا بين الرجل المثقف والرجل العالم بالمعنى الدقيق الذي يفهمه الناس لهذه الكلمة في هذا العصر: فالرجل الذي أتقن علماً من العلوم وتخصص فيه ووقف حياته عليه مثقف دائماً، ولولا ذلك ما فهم علمه ولا أتقنه ولا حاول التفرغ له، ولكن من الناس من يكون رجلاً مثقفاً بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها، وهو مع ذلك لم يتخصص في علم من العلوم، ولم يقف وقته وجهده على لون من ألوان المعرفة.

والرجل المثقف حقا يعرف أنه ليس قادراً على أن يبتكر المعجزات فيحسن العلم بما لم يصل الناس إلى العلم به بعد؛ ومن هنا اختلفت حظوظ الناس من الثقافة باختلاف العصور والبيئات: فقد كان "**هيرودوت**" مثلاً رجلاً مثقفاً في عصره، ولذلك استطاع أن يعرف كثيراً من شؤون الأمم التي ألمّ بأوطانها، ولم يجد نفسه

غريباً في أمة منها، وكان في الوقت نفسه مؤرخاً، لأنه روى لنا ما كان يمكن أن يُعرَف في عصره من تاريخ اليونان وتاريخ الأمم التي اتصلت بهم اتصالاً قريباً أو بعيداً. ومع ذلك فاختَرْ أيَّ مؤرِّخ معاصر فستراه أعظم ثقافة وأشد تخصصاً من "**هيرودوت**"، ذلك لأن علم الناس يزيد دائماً ولا ينقص أبداً. وإذا قضى الجهل والضعف على أمة من الأمم بعد أن كانت قوية مثقفة عالمة فإن علمها وثقافتها لا يذهبان مع الريح، وإنما ينتقلان منها إلى أمة أو أمم أخرى.

ومن هنا ورث العرب ثقافة اليونان، وورث الأوروبيون ثقافة العرب، ثم عرفوا حقائق الثقافة اليونانية أكثر مما عرفها العرب، فانتفعوا بها وأضافوا إليها، كما انتفع العرب بثقافة غيرهم من الأمم، وأضافوا إليها من عند أنفسهم.

وأكبر الظن أن أمماً أخرى ليست عظيمة الحظ من الثقافة والعلم ستأخذ عن الأوروبيين ثقافتهم وعلمهم، أو هي قد جعلت تأخذ عنهم ثقافتهم وعلمهم، فإن أتقنت ذلك، وعرفت كيف تسيغ ما تأخذ، وكيف تلائم بينه وبين ما ورثت عن أجيالها القديمة، وكيف تجعل من هذا وذاك مزاجاً ملائماً لطبعها، فليس من شك في أنها ستكون مثقفة عالمة بأدق معاني الثقافة والعلم. ومعنى ذلك أنها لن تكتفي بالأخذ والنقل، ولكنها ستتمثّل ما أخذت وما نقلتْ، وستُشارك فيه مشاركة أصيلة، وستضيف إليه من عندها مثل ما أضاف الأوروبيون إلى ما أخذوا عن غيرهم أو أكثر منه.

ومعنى ذلك أن الثقافة والعلم ليسا مقصورَيْن على أمة من الأمم أوْ جيل بعينه من أجيال الناس، وإنما هي أشبه شيء بالنسم الذي يتنسّمه الناس جميعاً، والذي يحمل من ألوان الغذاء ما يُصادف القادرين على ذوقه وتمثُّله والملاءمة بينه وبين طبائعهم وأمزجتهم، فكل إنسان بطبعه قادر على أن يتلقّى الثقافة والعلم ويزيد فيهما بشرط أن يبتغي إلى ذلك وسائله، ويسلك إليه سبُله، وينتفع بتجارب الأمم التي سبقته أو عاصرته والتي أخذت من الثقافة والعلم بأعظم الحظوظ.

وقد شُغِل الأوروبيون بحقائق ثقافتهم وعلمهم منذ انفضّت الحرب العالميـــة الأولى وجعلوا يُحاولون أن يُحللوا العقل الأوروبي ويردُّوه إلى الأصول التي كوّنتـه وأتاحت له ما يستمتع به الآن من الرقي والتفوّق، وعرّضتْه لما يتعرّض له الآن مـــن الخطر. وكان الشاعر الفرنسي العظيم "**بول فاليري**" بارعاً حقا حـــين ردّ العقــل الأوروبي الحديث إلى أصول ثلاثة، هي: تراث اليونان في الفلسفة والأدب والعلـــم والفن، وتراث الرومان في النظام والتشريع وفي السياسة والحرب، والمســـيحية بمـا أودعت فيه من قيم الأخلاق ومُثلها العليا ومن الطمـــوح إلى الإحســـان والعـــدل والإنصاف، وإلى العلم آخر الأمر بأن الناس جميعاً سواء في الحقوق والواجبات، وأن مساواتهم هذه إنما تأتيهم من حيث أنهم ناس يشتركون في طبيعة الإنسان الذي أنشأ الحضارة وعرف كيف يُسيطر على الطبيعة، أو على ما سيطر عليه منها، وكيـــف يستثمر الأرض ويوجه استثمارها إلى ما ينفع الناس عامة لا ما ينفع فرداً دون فرد أو شعباً دون شعب أو جيلاً من الناس دون جيل.

وواضح أن الانحراف عن أصل من هذه الأصول له نتائجه في ضعف الأمـــم وانحلالها وتأخّرها عما ينبغي لها من المكانة الممتازة بين الأمم الرّاقية.

فالانحراف عن إيثار المعرفة لنفسها والانتفاع بنتائجها ينتهي إلى الجهل ومـــا يعقبه الجهل من ضعف وانحطاط، والانحراف عن النظام وحسن التشريع والسياســة والاستعداد لطوارئ الحرب منتهٍ إلى الاضطراب والفوضى، والانحراف عن أصـــول الأخلاق ومثلها العليا منته إلى الظلم والاستعلاء واستغلال الإنسان للإنسان، وهـــو الذي تتورّط فيه أوروبا الآن، فيجرُّ عليها ما يجرُّ من ألـــوان الفســـاد والكـــوارث والخطوب.

وقد نستطيع أن ننظر إلى ثقافتنا العربية بنفس هذه النظرة على ما أصابها من ضعف وأدركها من تفرُّق وانتشار، فسنرى أن العقل العربي يمكن أيضاً أن يُـــردَّ إلى مثل ما رُدَّ إليه العقل الأوربي من الأصول مع اختلاف قليل، فنحن قد ورثنـــا عـــن

اليونان ثقافتهم وفلسفتهم وعلمهم وأدبهم وفنهم أيضاً، وقد تأثّرنا بكل ذلك في حياتنا العقلية وتكوين ما توارثنا من المعرفة، ونحن قد تأثّرنا بالنُّظم التي ورثناها عن الأمم التي سبقتنا إلى الحضارة:

تأثرنا بنظم البيزنطيين أيام بني أمية، ونظم البيزنطيين ترتدُّ في جملتها إلى النظم الرومانية.

وتأثرنا بنظم الفُرس أيام العبّاسيين، ولكن هذه النظم لم تخل قط من تأثر قليل أو كثير بالنظم الرومانية.

ونحن حين أنشأنا فقهنا وألوان التشريع في بلادنا قد تأثّرنا كثيراً بالفقه الروماني في العصور القديمة وبالفقه الأوربي في العصور الحديثة.

وضَع الإسلام مكان المسيحية؛ فهو الذي صاغ عقولنا وسيَّرنا على قواعد الأخلاق ومثلها العليا، وهو الذي حبَّب إلينا العدل وكرَّه إلينا الجور، وهو الذي حبَّب إلينا الإحسان وكرَّه إلينا القسوة والاستئثار.

ومهما تبحث عن أسباب الضعف الذي أصاب الأمة العربية وثقافتها في بعض العصور فسترى أنها تنحصر في الانحراف عن أصل من هذه الأصول التي ذكرناها.

وإذن فالطريق أمامنا واضحة وأعلامها بيّنة، يراها المنصفون ولا ينحرفون عنها إلاّ إذا تعمَّدوا هذا الانحراف أو غرَّهم الشيطان عن أنفسهم.

لا بُدَّ من أن نأخذ بأسباب العلم والثقافة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لا نتردّد ولا نتلكّأ ولا نستكثر في سبيل ذلك تضحية مهما تكن.

ولا بُدَّ من أن نُؤثر النظام ونتجنَّب الفوضى، ومن أن نتلقّن التشريع ونقيمه على الإحسان والبذل.

ولا بُدَّ من أن نتخذ الأخلاق لحياتنا قانوناً، ونجعَل المثل العليا أمامنا دائماً في كل ما نأتي وما ندع، إن كنا نريد مخلصين ما نطمح إليه من الرقي ومن تحقيق

المساواة بيننا وبين الأمم الأخرى، وتحقيق المساواة الدّاخلية بين أفراد الأمة من حيث هي أمة.

وما أُحب أن أبعد عن الثقافة التي هي موضوع الحديث والتي أبعدني عنها هذا الاستطراد شيئاً؛ فليس يكفي أن نحب الثقافة لنكون مثقفين، وإنما يجب أن نحبها ونبتغي إليها وسائلها، ونسلك إليها سبلها، وننظم التعليم على أنه وسيلة إلى أن يصبح الشاب المتعلم مهيأ ليكون رجلاً مثقفاً بالقدر الذي أشرتُ إليه آنفاً؛ فالظفر بالشهادات والإجازات والدرجات لا يغني عنه شيئاً ولا يجعله رجلاً مثقفاً إذا لم يستطع أن ينفي عن نفسه الشعور بالغربة حين يتصل بالناس مهما تكن أجيالهم وأجناسهم.

ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يتحدّث إلى الأوربي، فيفهم عنه ويُفهمه عن نفسه، وأن يكون ذلك شأنه حين يتحدّث إلى الهندي والصيني أو الأمريكي أو الروسي: ومعنى هذا كله أن التعليم يجب أن يُوجَّه إلى تكوين الملكات الإنسانية التي تُتيح للفرد أن يكون مستعدا دائماً لأن يتعلّم وأن يزيد حظه من المعرفة، وأن يشعر شعوراً قويا في كل لحظة من لحظات حياته بأنه في حاجة ملحة إلى ذلك مهما يكن مركزه الاجتماعي، ومهما يكن قد حصّل في نفسه من العلم؛ ففوق كل ذي علم عليم، كما يقول الله عزَّ وجلَّ.

وأخصُّ مزايا العقل الحر هو أنه شاعر بنقصه دائماً، طامح إلى الكمال دائماً، مستيقن بأنه لا يبلغه مهما يبذل من جهد، ومهما يُحصِّل من علم، ومهما يبل من التجارب والخطوب.

فأين نحن الآن من هذا؟ مازال الأمد بيننا وبينه بعيداً أشدَّ البعد، فما أكثر ما يلقى العربي — مصريا كان أو غير مصري — الأوربي والأمريكي والهندي والصيني، فلا يكاد يفهم عنه ولا يكاد صاحبه يفهم عنه شيئاً، مع هذا الفرق بينه وبين الأوربي والأمريكي، وهو أن الأوربي والأمريكي لا ييأس من فهمه، وإنما يحاول ويلتمس

ألوان الحيل ليعرف ماذا يُريد المصري أن يُلقي عليه من حديث! أما المصري فيُسرع اليأس إليه، فلا يُحاول ولا يلتمس حيلة، وربَّما عزَّى نفسه بالسخرية من هذا الأوربي أو الأمريكي الذي لا يسير سيرته، ولا يتكلّم لغته، ولا يحسن الإعراب عمّا يُريد!

ومصدر ذلك أن المصري لا يتعلّم في مدارسه ومعاهده، وإنما يحفظ ليؤدّي الامتحان، ثم ينسى ما حفظ، وينسى ما امتحن فيه، ويمقت الحفظ والامتحان أشدّ المقت، ويمضي إلى حياته المادية اليومية يسلك إليها ما يستطيع من السبل لا يطمح إلى شيء، ولا يطمع في شيء، وإنما يكفيه أن يعيش يوماً بيوم، ولا عليه أن يخرج من حياته كما دخل فيها لم يُغن عن نفسه ولا عن الناس شيئاً، كأنه لم ير الدنيا، وكأن الدنيا لم تره في يوم من الأيام.

وهذا النوع من التعليم لا يمكن أن يلائم وطناً طموحاً ولا شعباً عريقاً في المجد خليقاً بأن يكون مستقبله ملائماً لماضيه على رغم ما اختلف على هذا الماضي من المحن والخطوب.

وما أريد بهذا كله أن أزعم أن مصر لم تصنع في سبيل الثقافة شيئاً، وإنما أُريد أن أقول إن ما صنعته مصر في سبيل الثقافة والعلم على كثرته وخطره بالقياس إلى ما كانت عليه أيّام سلطان الترك العثمانيين، بل في أواسط القرن الماضي، ليس إلا شيئاً قليلاً، بل شيئاً أقل من القليل بالقياس إلى آمالها وآمال الإنسانية فيها؛ فليست مصر وطناً كغيرها من الأوطان، وإنما هي وطن في مركز جغرافي بين الشرق والغرب لم تستغن عنه الإنسانية في يوم من الأيام ولن تستغني عنه في يوم من الأيام، بل ستزداد حاجتها إليها ازدياداً مطرداً بمقدار ما يُصيب حياتها من التعقيد، كلما تقدّمت في سبيل الرقي الثقافي والعلمي والسياسي والاقتصادي أيضاً.

وقد زعم شاعرنا القديم أن حاجة من عاش لا تنقضي، وهذا صحيح، ولكنه أقل مما يؤدي الواقع والحق من أمر الإنسانية، لأن حاجتها لا تنقضي، بل تزداد ويشتد ازديادها، وتتعقّد ويعظم تعقيدها.

وكلما ازدادت حاجات الإنسانية وتعقدت ازدادت حاجات الشعوب إلى أن تتضامن وتتعاون، ويشد بعضها أزر بعض، وازداد الاتصال بين الشرق والغرب، وتعقّدت ألوانه وضروبه. وبمقدار هذا كله تزداد حاجة الإنسانية إلى مصر، لأنها طريق الاتصال بين الشرق والغرب، ولأنها المدخل الطبيعي لهذه القارة الإفريقية التي لن تظل كما هي هامدة راكدة، بل ستأخذ في النموّ واليقظة والأخذ بأسباب الحضارة؛ فتشتد حاجتها إلى مصر أولاً، وإلى الشرق والغرب بعد ذلك.

وكل هذا يفرض لمصر حقوقاً على الإنسانية، ويفرض عليها واجبات لهذه الإنسانية. ولست الآن بإزاء الحديث عن حقوق مصر، وإنما أنا بإزاء الحديث عن واجباتها، وقد حرصتُ دائماً وأحببتُ لغيري دائماً أن يحرص على أن يذكر الواجبات، وينهض بها قبل أن يذكر الحقوق ويُطالب بتحصيلها.

ومعنى هذا كله أن الحياة المستقبلة تفرض على مصر أن يزداد حظ أبنائها من العلم والثقافة، لا أقول من يوم إلى يوم، بل أقول من ساعة إلى ساعة. ولا بد من أن يكون التعليم فيها جديراً أن يُهيِّئ أبناءها لتلقّي هذه الثقافة والتزيُّد منها في كل لحظة من لحظات الحياة.

والتعليم أساس للثقافة، ولكنه ليس كل شيء، بل هناك أشياء كثيرة لا تستقيم الثقافة إلا بها، ولا سبيل إليها إلا إذا هيِّئ الشباب لتحقيقها والانتفاع بها.

وقد قلت إن الرجل المثقف هو الذي لا يشعر بالغربة في أيِّ وطن أو مكان أو بيئة؛ وإذن فليس بُدٌّ للتعليم من أن يهيِّئ الشباب ليكونوا قادرين على أن يعرفوا شؤون الأوطان والأمكنة والهيئات والظروف الإنسانية على اختلافها.

والرجل المثقف لا تستقيم له ثقافة إلا إذا عرف وطنه وأمته والظروف التي تُحيط به؛ فليس بد من أن يهيئه للتعليم لذلك ومن أن يلقنه أوليّات هذه المعرفة بالأمة والبيئة والظروف.

ولا تستقيم الثقافة إلا إذا عرف الأوطان الأجنبية وما يُحيط بها من الظروف الدّاخلية والخارجية، وإذن فيجب أن يهيئه التعليم لهذه المعرفة أيضاً. ولأمر ما حرصت الأمم المتحضرة على أن تُعلِّم أبناءها في المدارس ألواناً من العلم تهيئه لهذا كله: فهي تعلمهم تاريخهم الخاص والتاريخ العام، وهي تعلمهم الجغرافية الخاصة والجغرافية العامة، وهي تُظهرهم في المدرسة الثانوية على أوّليّات الآداب الكبرى: قديمها وحديثها بلغتهم الوطنية، ليستطيعوا بعد ذلك أن يتعمّقوها ويفقهوا دقائقها لمجرّد المعرفة، وحين يشعرون بالحاجة إلى ذلك.

فإذا قلنا إن من أصول الثقافة إحياء التراث القديم للأمة فمعنى ذلك بالقياس إلى المصري أن يكون أمامه تُراث مصر الفرعونية، وتُراث مصر اليونانية الرومانية، وتراث مصر الإسلامية، وأن يكون مهيأً لفهم هذا التراث كلما أراد أن يُلِمَّ به، أو يعود إليه.

وليس ذلك بممكن إلا إذا عرف الأمم التي اتصلت بمصر أو اتصلت بها مصر في ظروف السلم والحرب أثناء هذه العصور، وليس هذا بالشيء القليل؛ فهو سيكفل للمصري أن يكون مهيأً لفهم التاريخ القديم كله، ولفهم تاريخ القرون الوسطى، ولفهم الآداب التي امتازت في هذا التاريخ أو ذاك.

وأمته متصلة بالأمم الحديثة خصاماً ووئاماً وتبادلاً للمنافع، فليس له بُدٌّ من أن يكون مهيأً ليعرف من أمر هذه الأمم أكثر مما يمكن أن يعرفه، وسبيل ذلك العلم باللغات الأجنبية وقراءة ما يُكتب فيها، وترجمة ما يحتاج منه إلى الترجمة، ليقرأه الذين لم يتعلّموا لغة أجنبية أصلاً أو تعلّموا لغةً أو لغتين دون أن يتعلّموا كل اللغات الأجنبية، فليس هذا بالشيء الذي يُتاح لكلّ إنسان، بل قلّما يتاح لإنسان.

وكل هذا يفرض على القائمين بأمور التعليم الذين يهيئون الشباب للثقافة والعلم أن يمنحوا تعليم اللغات الأجنبية في المدارس أقصى ما يستطيعون أن يمنحوه من العناية.

والرجل المثقف حقا في هذا العصر لا يستطيع أن يعيش عيشة راضية إذا لم يعرف لغة أجنبية، فإن أراد التخصص في العلم فقلّما تكفيه لغتان أو ثلاث من لغات الأمم الكبرى التي تُعنَى بالأدب وتُنتِج في الأدب والفن والفلسفة.

ومادام الفرد الواحد لا يستطيع أن يتعلم اللغات الكثيرة في المدرسة الثانوية، فلابد من أن تُدرس اللغات الكبرى كلها في المدارس، وأن يُفرض على التلميذ أن يختار منها لغتين على الأقل.

والرجل المثقف حقا لا يستطيع أن يجعل عقله حكراً لثقافة بعينها، وإنما يجب أن تتفتح نفسه للثقافات مهما تكن ومن أين تأتي، وهنا تقوم الترجمة مقام العلم باللغات الكثيرة.

وإذا أُتيح هذا للشباب في أمة من الأمم فمن الخطأ أن نعتقد أن الثقافة الحقة قد أُتيحت لهؤلاء الشباب، ذلك أن الثقافة ليست علماً فحسب، وليست فهماً وحفظاً فحسب، وإنما هي إلى جانب ذلك شعور وذوق وملاءمة بين المعرفة وبين الطبع.

ومن هنا كانت آفة التعليم أنه يتعرّض لأن يكون ملئاً للرؤوس بالمعرفة الكثيرة، دون أن يبلغ القلوب والأذواق ويُؤثر فيها، ويجعلها أهلاً للحرية الصحيحة والشعور الصحيح بأن الإنسان إنسان حيث يكون: إنسان في وطنه يشعر بالتضامن والتعاون بينه وبين الإنسان مهما يكن جنسه، ومهما يكن وطنه، ومهما تكن بيئته وظروفه.

والإنسان المثقف هو الذي يستيقن بقلبه وعقله أن الأرض كلها وطن عام له إلى جانب وطنه الخاص، ويُهيئ نفسه أو تُهيئه الدولة ليحيا هذه الحياة كريماً في وطنه وكريماً خارج وطنه، كريماً على نفسه وعلى الناس أيضاً.

وإذا كان لكل هذا الحديث نتيجة نستطيع أن نستخلصها منه، وغاية نستطيع أن ننتهي بها إليها، فالنتيجة والغاية شيء واحد، وهو أن مصر على كثرة ما بذلت من جهد وما أنفقت من مال وما احتملت من أعباء في سبيل الثقافة لا تزال في أول الطريق، وما زالت الشقة أمامها بعيدة لا حدَّ لبعدها؛ فالثقافة كما قلت لا نهاية لها، والشعب المثقف هو الذي يُحقّق في نفسه أنه مهما يُحصِّل من المعرفة فسيظل دائماً محتاجاً إلى التزيُّد منها، وسيرى أنّ ما عرفه مهما يكثر أقل مما يجب أن يعرفه.

وإذا فهم القائمون على شؤون العلم والثقافة هذه الحقائق، وفهمها الذين يقودون الرأي ويُدبِّرون أمور الشباب أمكن مصر أن تؤمن عن ثقة ويقين وفي أمل أيّ أمل بأنها سائرة إلى الرقيّ حقا، وبالغة منه ما تُريد.

٣-من تجربتي في الصحافة

لوديع فلسطين([٦٨])

إن أي حديث عن تجربتي لن يبرأ من التفاخر "بأنا" والتحدث عن "الذات"، فأستعيذ بالله من كلام يدور حول شخصي، وأعتذر للقارئين إن هم ضاقوا بكلام مُرسَل يمتاح من معين الذاكرة، ويُصوِّر جوانب من عمر تقضَّى في العمل الصحفي في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من هذا القرن.

البداية كيف كانت؟

دخلت عالم الصحافة على تَهيُّب شديد، من الباب الأكاديمي، فدرست علوم الصحافة نظراً وعملاً في معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكنت من أوائل الخريجين المؤهلين من معهد هو أول معهد على شاكلته في الشرق الأوسط، فقد سبق جميع معاهد الصحافة الأخرى. وكانت الأجيال التي سبقتني إلى العمل في الصحافة إما تحمل شهادات من كليات الحقوق أو الآداب، وإما اقتحمت الميدان بالاجتهاد الذاتي وبغير مؤهلات جامعية، واكتسبت بمضي الوقت الخبرة والشهرة والحيثية الاجتماعية!

وقد تَهيَّبت هذا الميدان لاعتبارين أساسيْن:

أولهما: أن استعدادي الفطري كان استعداداً علميا، وكنت أُهيِّئ نفسي للالتحاق بكلية من كليات الدراسات العلمية (الطب أو الصيدلة أوالعلوم)، لكنني اضطررت إلى تغيير اتجاهي بسبب ما كانت هذه الكليات تتقاضاه من مصروفات باهظة تؤرِّق أسرتي.

([٦٨]) وديع فلسطين: من تجربتي في الصحافة، مجلة "الفيصل"، العدد (٢٠٦)، ص ص٦٧-٦٩.

وثانيها: لأنني كنتُ ــ بحكم صعيديتي التي جُبِلْتُ عليها ــ كثير الانطــواء على النفس وكثير الخجل، في حين أن الصحافة تتطلّب قدراً كبيراً مــن الانبســاط والجرأة والثقة بالنفس، لأنها تحتم على المشتغل بها أن يتعامل مع دهاقنة الساسة مــن محليين وأجانب.

كما كان من أسباب تهيبي أن الباشوات كانوا يحتلون مراكز الصدارة ســواء في ملكية الصحف أو تحريرها، مثل **جبرائيل تقلا** باشا، و**أنطون الجميِّل** باشــا في "الأهرام"، والدكتور **فارس نمر** باشا و**خليل ثابت** باشا و**كــريم ثــابت** باشــا في "المقطم"، و**فكري أباظة** باشا في "المصور"، و**عبد القادر حمزة** باشا في "البــلاغ"، و**إدجار جلاّد** باشا في "الزمان" و"الجورنال ديجبت"، والدكتور **محمد حسين هيكل** باشا في "السياسة".

وقد عرفت معظمهم وألفتهم أكثر تواضعاً ممن لا يحملون هذه الرتبة الرفيعة! وكنت في ذلك الحين أقول لنفسي: كيف يتأتّى لك وأنت ناشئ بسيط الحــال لم يسبق لك تعامل مع الباشوات ولا حتى مع البكوات أن تعمل معهم، ناهيك عن أن تُنافسهم؟

لكن تسلُّحي بشهادة في الصحافة ــ التي سوّغت لي أن أُوَقِّع كتاباتي الأولى ممهورة بعبارة "بكالوريوس في الصحافة" وضعتني في بداية كريمة من ســلَّم العمــل الصحفي، ولم ألبث بالاجتهاد الشخصي والتوسُّع في المُطالعات واستشراف المُثُــل العُليا وعقد الصلات أن "حفرت" لنفسي زاوية في الصرح الصحفي في تلك الأيام، برغم أنني كنت في العشرينيات من عمري.

ولقد كان من حظي الموفق أن عملت في دار "المقتطف والمقطم"، بعد فــترة قصيرة قضيتها في إدارة جريدة "الأهرم"، وهي دار كانت تُصدر مجلة علمية ثقافيــة عريقة هي "المقتطف"، وجريدة مسائية عتيقة هي "المُقَطَّم"، فوزّعت عملي بين هذه

وتلك. وما زلت أحس بدين عميق في عنقي للرجلين العظيمين اللذين عملت تحت إشرافهما المباشر في هذه الدار، وهما **خليل ثابت** باشا في "المقطم"، والدكتور **فؤاد صروف** في "المقتطف"، فقد حرصا على تعهُّدي لا بالتوجيه والتشجيع فحسب، بل بإعطائي فرصة كاملة للتدزيب على جميع فنون الصحافة بالتنقل بين أقسام الجريـــدة المختلفة حتى تتأصَّل فيّ الاستعدادات لمعالجة الترجمة وكتابة التعليقـــات السياســـية والاقتصادية وكتابة المقالات العلمية وإجراء الأحاديث مع كبار المسؤولين والزائرين، وتلخيص الكتب الأجنبية وعرض الكتب العربيةومتابعة المحاضرات العامة التي كانت منابر القاهرة الكثيرة تحتفي بها، وإجراء التحقيقات الصحفية، وهلم جرا.

وكان "المقطم" يتميّز عن غيره من الصحف بمقالات الصدر (الافتتاحيــــات) التي كان يكتبها **خليل ثابت** باشا، فلما آثر التقاعد أسند إليّ مهمة كتابتها (علـــى الرغم من أن نصف قرن كاملاً كان يفصل بين عُمرينا)، فصرت أعقد مقالا رئيسيا حول قضية داخلية أو خارجية يُنشر في الصفحة الأولى بعنوان ثابت هو "في السياسة الدولية"، ومقالا تكميليا يتضمّن تعليقات سريعة على الأحداث المحلية والدولية يُنشر في الصفحة الأخيرة بعنوان ثابت هو "عجلة الحوادث"، وظللتُ أُتابع كتابـــة هـــذه الفصول يوميا إلى أن أُغلِقت جريدة "المقطم" في أواســـط نوفمـــبر ١٩٥٢م، أمـــا "المقتطف" وهي مجلة شهرية مشهورة ــ فقد واليتُ اختصاصها بمقـــالات أدبيـــة وعلمية إلى أن احتجبت في ديسمبر ١٩٥٢م، بعد سبعة وسبعين عاما كاملة.

الحرب العالمية ومطالعاتي العلمية

كانت الحرب العالمية الثانية مُشتعلة الأوار في فترة اشتغالي اليومي بالصحافـــة الهادرة، عندما بوغتنا في يوم من أيام أغسطس ١٩٤٥م بطوفان من برقيات وكالات الأنباء تروي أنباء إلقاء قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما، وأخرى على مدينة نجازاكي في اليابان، فأحدثتا تدميراً ماحقاً في المدينتين عجَّل بنهاية الحرب. وكانت وكالات

الأنباء تفيض في شرح النظرية العلمية التي قامت عليها القنبلة الذرية مستخدمةً في ذلك مصطلحات علمية عويصة. ومن محاسن الاتفاق أنني كنت شديد القرب من أستاذي **فؤاد صروف** الذي كان ينشر في المقتطف" فصولاً كثيرة عن "فلق نواة الذرة" وعن سلسلة التفاعل التي يُحدثها هذا الفلق، فتنطلق منها طاقة هائلة تكتسح كل ما أمامها. وكنتُ وقتها أُطالع هذه الفصول من قبيل التزوُّد بالجديد من أخبار العلم فاستقرت في ذهني صورة عامة للذرة وأفاعيلها، كما ترسّخت في ذاكرتي المصطلحات العلمية التي سكّها أستاذي **فؤاد صرُّوف** في هذا الباب. فلما داهمتنا أخبار القنبلة الذرية، لم أُصادف مشقة في ترجمتها إلى العربية ترجمةً واضحة، ولا في التعليق عليها تعليقاً يتفق مع قواعد العلم التي حصَّلتُها بالمتابعة الحديثة لكتابات أستاذي **صرُّوف**.

وفوجئنا ذات يوم بوكالات الأنباء تحمل إلينا نبأ انتحار وزير البحرية والدفاع الأسبق في الولايات المتحدة في مايو ١٩٤٩م، بأن ألقى بنفسه من إحدى ناطحات السحاب فلقي مصرعه، وعُرِف بعد ذلك ــ وهو ما ثبت من مطالعة مذكراته ــ أنه انتحر بسبب مضايقات صهيونية، فعقدت مقالاً عن **جيمس فورستال** ــ وهذا اسمه ــ اجتهدتُ في تحليل شخصيته من الناحية النفسية، وتفسير الدوافع التي جعلته يُلقي بنفسه منتحراً. وفي اليوم التالي تلقّيت رسالة من عميد علماء علم النفس في مصر ــ أستاذي وصديقي الدكتور **أمير بقطر** ــ أثنى فيها على صدق تحليلي قائلاً: إن الرأي الذي انتهيْت إليه هو الرأي الصائب من الوجهة النفسية. فتأكّد لي أن الذخيرة التي حصَّلتُها من مطالعات سابقة في علم النفس وفي سواه من أبواب المعرفة قد دلَّتني على المحجة السليمة.

وقد عملت بتدريس علوم الصحافة في الجامعة الأمريكية بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٧م، وحرصت على أن أؤكّد لطلابي ضرورة الفصل بين الخبر من حيث هـــو واقعة يتعيّن إيرادُها بمنتهى الصدق والحياد دون أي تستُّر أو تحوير، وبين المقال الذي يصح لكاتبه أن يتخذ أي زاوية يراها للتعليق على ما جاء في الخبر. ولكن الخلط بين الخبر والرأي خطأ لا يجوز في العُرف الصحفي الصحيح. وكان من الطبيعي أن أُطبِّق عمليا ما كنتُ أُدرِّسه نظريا.

وعندما توالت الانقلابات في سورية، شنَنْتُ في مقالاتي حملة شعواء على قادة الانقلابات المتتالين: **حسني الزعيم**، **وسامي الحنّاوي**، **وأديب الشيشكلي**. فلما زار **الشيشكلي** مصر عام ١٩٥٢م حرص سفير سورية في مصر (وهو الأديب العـــالم الصديق الأمير **مصطفى الشهابي**) على ترتيب لقاء بيني وبينه، فقلت **للشيشكلـــي**: من حقك أن أورد أقوالك بالحرف الواحد، ولكن من حقي أن أُعقِّـــب عليـــها في افتتاحياتي وفقاً لما أراه، وقد كان.

ولا ريب في أن الصحفي إذْ يرى الناس ساعيةً إليه، حاسبةً حسباناً لما يكتبه، مُعرَّض لأن يستشعر قدراً كلبيراً من الأهمية، وربما النفوذ. حتى إن نقيب الصحفيين **فكري أباظة** باشا قال في حفل أُقيم لتكريمي بمناسبة فوزي بجـــائزة **فـــاروق الأول** للصحافة الشرقية عام ١٩٤٩م، إنه بعد متابعته لمقالاتي أُعجب بقدرتي على مصاولة **تشرشل** رئيس وزراء بريطانيا، **وأنطوني** إيدن وزير خارجيتها، كأنني معهما فرسان تجري في حلبة سباق. وهو قول يورث الغرور، لكن الصحفي مُنتَصَح بـــأن ينـــأى بنفسه عن نقيصة الغرور، وأن يستعصم بالرسالة الصحفية الأصيلة، ألا وهـــي أنـــه مهما ارتفعت مراتبه، خادم للجمهور الذي يُخاطبه، وخادم للحقيقة التي وُكِّل بأن يسوقها إلى القارئين.

تجربة لا أنساها

وثمة تجربة مرَّت بي في عملي الصحفي، لأرى بأساً من إيرادها. فقد اتصل بي صاحب وكالة وطنية للأنباء قائلا: إنه يرغب في الاستعانة بي في وكالته، إلى جانب احتفاظي بعملي في الجريدة. وتوجهّت إليه في الموعد المحدَّد، فألفيت علـــى مكتبـــه أكداساً من الصحف الأجنبية وجهاز راديو ضخماً يستقبل إذاعات العالم كله. وقال صاحب الوكالة: إن القضية الوطنية هي شاغله الوحيد، وهو لذلك لا يعتمد علـــى مراسلين في العالم الخارجي، بل على الصحف الأجنبية ورصد الإذاعات الأجنبيـــة. وشرح لي كيف يتم تحوير الأخبار التي تمس القضية بحيث تؤول كلها بعد تحويرهـــا إلى خدمة القضية، بغض النظر عن صدقها. ثم دفع إليَّ بكومة من الصحف الأجنبية وجهاز الراديو، ورجاني أن أستخرج من هذه المصادر "أخباراً طازجة" تخدم القضية. وقضيتُ يومين أُحاول فيهما تلفيق الأخبار خدمةً للقضية، فلا ضميري الصحفـــي استراح ولا أفلحت في هذه المحاولات، فتركتُ لصاحب الوكالة رســـالة اعتـــذار بدعوى ضعف صحتي وعجزي عن الجمع بين عملين. وبعدما كنت أنشر أخبـــار وكالته في الصفحة الأولى من جريدتي، بت أطرح نشرة الوكالة بقضِّها وقضيضها في سلة المهملات دون أن أفضَّها.

مهنة المخاطر

وإذا كان الوصف الشائع للصحافة هو أنها مهنة البحث عن المتـــاعب، فـــلا إخالنا نُجانب الصواب إذا قلنا إنها مهنة التعرُّض للمخاطر.

ومن الحوادث التي لا أنساها أن صديقي الأديب الصحفي **فرج جبران** زارني ذات يوم وقال لي إن هناك وفداً من كبار الصحفيين الأمريكيين برئاسة **نيكر بوكر** يزور أندونيسيا، وأنه سيمرُّ بمطار القاهرة لمدة ساعة في طريق عودته إلى بلاده. وقال إنه اتفق مع المسؤولين على ترتيب عشاء للوفد في المطار يضم بعـــض الصحفيين

المصريين لكي يشرحوا لزملائهم الأمريكيين قضية مصر وسائر القضايا العربية، ورجاني أن أكون من جملة المشاركين في هذا العشاء. فقبلتُ الدعوة، وهيّأت نفسي لهذا اللقاء. وفي اليوم الموعود إذْ كنت عاكفاً على قراءة برقيات وكالات الأنباء، فوجئت ببرقية تقول: إن الطائرة التي كانت تُقل الصحفيين الأمريكيين قد سقطت وتحطّمت، وقُتِلَ كل من كان على متنها! ومن غريب المصادفات أن **فرج جبران** نفسه، الذي كان حريصاً على ترتيب هذا العشاء، لقي بدوره مصرعه في حادث طائرة اختفت فوق البحر المتوسط، و لم يُعثَر لها على أثَر!

فالصحافة ـــ من ناحية ـــ مهنة المخاطر، كما أنها مهنة المفاجآت من ناحية أخرى، ولابد للصحفي أن يُدرِك أن عمله محفوف بالمخاطر، وأن المفاجآت تكاد تكون خبزه اليومي.

وقد يعنّ لسائل أن يسأل عن الحصيلة النهائية للعمل الصحفي، فأقول: إن الصحافة تستهلك العمر والجهد في خدمة قضايا هي بطبيعتها قضايا آنية ومتغيرة، فإذْ أُراجع مثلاً مقالات ضافية نشرتُها حينذاك عن قضية مصر، وكنا قد حصرناها في عبارة "وحدة وادي النيل تحت تاج **الفاروق**" آسف على المِداد الكثير الذي سَكَبْتُه في الدفاع عن وحدة انفضّت تحت تاج لم يعد له وجود! وإذْ أُراجع ما كتبته في الدفاع عن قضية العرب الثانية وهي قضية فلسطين، أراني لم أُشِر إلى "إسرائيل" إلا بوصفها "مزعومة"، و لم أقنع في كتاباتي إلا بفلسطين عربية كاملة، فلا تقسيم ولا تدويل للقدس، ولا لتكوين دولة فدرالية أو كونفدرالية تكون فلسطين طرفاً فيها. وطبعاً تغيَّرت الصورة اليوم، و لم يعد أحد يزعُم بأن "إسرائيل مزعومة"!

وكنا في أيامنا نتحدّث عن حلم "العروبة"، فجاء صديقنا **ساطع الحصري** وصاغ هذا الحلم في قالب "القومية العربية"، وذهب آخرون إلى تصوير هذا الحلم في

عبارة "الوحدة العربية"، وقد تبخَّرت هذه الأحلام لاعتبارات ليس هذا مجال رصدها!

وهكذا انفعلنا ككتّاب وصحفيين دفاعاً عن قضايا صارت اليوم غير ذات موضوع، ولا بد إذن أن نُهيل التراب على كل ما نشرناه من موضوعات في القضايا السياسية الآنية المتقلبة.

مشاركات أخرى

ولكن، لعلَّ أكبر ما أفدته من الصحافة هو القابلية للتكيف، ذلك أن العمل الصحفي قد هيَّأ لي أسباب العناية بمجالات متعددة من المشاغل الفكرية، فلم يكن عسيراً عليَّ بعد ذلك أن أغشى ميدان الأدب، أو أن أعمل بالترجمة العلمية والفنية والمتخصصة أو أن أُشرف على كتب ومجلات وأعمال تتصل بالاقتصاد والقانون والصناعة، أو أن أشارك في لجان التحكيم الدولي، أو أن أُسهم في إعداد موسوعات متباينة الموضوعات، فضلاً عن أن الصحافة قد هيّأت لي فرصة عقد صلات وثيقة مع معظم الأعلام الذين عاصرتهم، سواء في مصر أو البلاد العربية أو في المهاجر، حتى وصفني **أنور الجندي** بأني من "المراجع الحية"، ووصفني الأديب العراقي **وحيد الدين بهاء الدين** بأنني "سفير الأدب المعاصر" — وليس لي ادّعاء بهذا الوصف أو ذاك — كما أن الصحافة أتاحت لي فرصة للتعريف بناشئة الأدباء الذين صاروا بعد ذلك أدباء كباراً مثل **نجيب محفوظ**، و**علي أحمد باكثير**، و**عبد الحميد جودة السحار**، و**عادل كامل**، و**نزار قبّاني**، و**سهيل إدريس**، و**يحيى حقي**، و**محمود البدوي** .. وغيرهم. فلعلّي كنت أسبق الذين عرّفوا بهؤلاء الأدباء، وهي حقيقة لن يمنعني التواضع دون إعلانها، وإن تجوهلت طويلاً.

وإذا كنت قد زاولت الصحافة دراسةً وممارسةً وتدريساً، فقد أسهمت فيها أيضاً بثلاثة كتب نقلتها إلى العربية وهي: "استقاء الأنباء فن: صناعة الخبر" **لجوليان**

هاريس وستانلي جونسون ، وكتب مقدمته الصحفي الكبير الأستاذ **محمد زكـــي عبد القادر**، وكتاب "مقدمة إلى وسائل الاتّصال" **لإدوارد واكــين**، و"العلاقــات العامة فن" **لإدوارد بيرنيز** وآخرين وقد ترجمته مع زميلي الدكتور **حسني خليفة**.

٤-سهام ماضية

للدكتور محمد مندور (٦٩)

هناك ثلاث رذائل كبيرة تنخر في أخلاق الكثيرين من المصريين على نحوٍ لم أر له شبيهاً في بلدٍ من بلاد العالم، على كثرة ما رأيتُ من بلاد وقابلت من بشـــر، ولا بد من أن نكشف عنها لعلها تُخفي عن أنظارنا شبحها المرذول، فقد سئمتُ لقياها في كل سبيل، وبمنحنى كل نفس.

*أمّا أولاها، فهي محاولة كل إنسان أن يوهمك أنه أكبر وأفضل وأعلم مما هو، ولقد كان من عادتي الصبر، فكنت أتلقّى هذه الدّعاوى بصدر رحب، ولكنـــني لم أكن ألبث أن أحس بنوع من اختلاس الثقة يُحاوله من يتخطّى حدود نفسه، وليس أمرّ على النفس ولا أهيج للحفيظة من خيبة الأمل، وإنه من اليسير على مـــن أوتي شيئاً من الفراسة وسداد الرأي أن يحكم على الناس ويُنزلهم منازلهم الحقة، وإنه لمـــن الخير لنا جميعاً أن نُحاول دائماً احتلال المكان الذي نستحقه في النفوس دون تطاول أو انحطاط، أما الإقحام فما نظنُّه يُعقِّب أثراً باقياً، حتى ولا في نفوس البُله!

ولستُ في الحق بواثق من أن أمثال هؤلاء الناس الذين نشكـــو منـــهم مـــرَّ الشكوى يعون ما يفعلون أم هم في غفلة الغرور، ولكنني لاحظتُ في الغالب الأعم أنهم مشربون بحقارتهم، وأنهم يبذلون مجهوداً إراديا لتغطية تلك الحقـــارة بالإيـــهام، وذلك لما نُلاحظه من هياج في الحركات، وضغط على مخارج الحـــروف، وتصنـــع للانفعال وارتفاع في الصوت، وهلهلة في ملامح الوجه وتطلع في السكون والحركة.

*وثانيتها غيرة مسرفة وحقد عجيب، ولكم ساءلتُ نفسي لماذا يشغلُ الناسُ بغيرهم إلى هذا الحدِّ المُدمِّر، وتلك مشاعر خليقة بأن تُنزِل بالنفس الخراب.

---

(٦٩) د. محمد مندور: كتابات لم تنشر، ص ص١٢٢-١٢٤.

والذي عهدته في النفوس القوية هو نزوعها المستمر إلى التسامي بذواتها، فهي تسعى لأن تكون في يومها خيراً من أمسها، وأن تعمل في غدها ما يُميِّزُ عملــها في حاضرها، فإذا عزَّ التسامي كان الاستجمام في ثقة وتوثُّب.

وأما أن يُفني المرءُ بياضَ يومه وسوادَ لياليه في التفكير فيما وصل إليــه هــذا الشخصُ أو ذلك، أو الخوف من أن يسبقك زيد وبكر فهذا شعورٌ صغير لا تعرفــه إلا نفس صغيرة، وهو دليلٌ على عدم الثقة بالنفس، كما هو دليــل علــى انهيــار الشخصية، وإن كان هناك شعور قبيح من مشاعر البشر فأجدر به أن يكون ذلــك الشعور!

*وثالثها: فساد عميق في تربية الناس الاجتماعية، فقد تُلاقــي صنوفــاً مــن الأفراد، بعضهم صغير، وبعضهم كبير. ولقد تتلطّف مع الصغير بدافع إنساني بريء، ظانا أنك بعملك هذا تُدخل السرور على نفس بشرية، فإذا بك وقد سقطت هيبتك من قلبه، وإذا به يتطاول على المساس بك في غير ذوق ولا حياء، ولقد تُفسِــح في صدرك، ثم يأتي يوم يتحرّك دمك فإذا بك تردُّ في عنف، وإذا بالمسكين يصحو بعد غفلة، وإذا به يشكو دون أن يفهم شيئاً أو يُدرك له محنةً. فإذا جاء يومٌ، وصفعتَــهُ صفعَ الأقوياء لأنكَ رجلٌ عزيزُ النفسِ حامي الدماء أُسقِط في يده، وأخذه إمّا عنادُ الحمقى وإمّا انهيارُ الأذلاّء! ولستُ أدري لذلك من ســببٍ غــيرُ فســادِ التربيــةِ الاجتماعيةِ، فسادها في المترلِ وفي المدرسةِ وفي الوظيفةِ، وفي الشارعِ، وفي الدكانِ، وفي المصرف، وفي كلّ مكان، حتى لكأنَّكَ تسيرُ في بلدٍ كله أرقاء!

أيُّ عذابٍ نفسيٌّ في أن تراك مضطراً إلى تقديرِ كل لفظ تقول، وكل حركةٍ أو ابتسامةٍ أو تقطيبِ جبينِ أناس لا فهمَ لهم ولا تقدير، ولا يعرفون حدا يبــدؤون منه ولا حدًّا ينتهون إليه؟!

ترى هل باستطاعتك أن تخلق لنفسك عقليةً جديدةً وذوقاً جديــداً وتربيــة جديدةً تُماشي بها الناس، لا أن تأخذك العزة فتثبت كما أنــت مُحــولاً أن تنقــل

العقول وتُحوِّل الأذواق، وتسدد التربية لتستطيع أن تتفاهم مع الناس، أو أن تقبلهم، أو تطبق عليهم خيراً.

هذه أسئلة لا يستطيع الإجابة عليها غير الله، فإليه نفوِّضُ الأمر.

٥-الذوق الأدبي

للدكتور عبد القدوس أبي صالح ([٧٠])

نستطيع أن نُعرِّف الذوق الأدبي بأنه "قدرة يُميَّز بها جمـــالُ النــص الأدبي أو رداءته" .. وما من شك في أن الناس يتفاوتون في الذوق الأدبي كما يتفـــاوتون في الطعام والشراب.

ومع أن من الصعوبة بمكان أن توضع معيارية للـــذوق الأدبي إلا أن النقـــاد المعاصرين وضعوا مصطلح "الذوق السليم" ليكون معياراً تقريباً للـــذوق المتوســط الذي لا يهبط إلى مستوى الذوق السقيم، ولا يرقى إلى مرتبة الذوق المتفرِّد.

والذوق الأدبي موهبة فطرية، وهو ينمو بالثقافة وسعة الاطلاع، كما ينمـــو بالدربة والمران على تذوق النصوص.

وللذوق الأدبي العام أهمية بالغة في توجيه الحركة الأدبية، ويذهب الأســـتاذ **عمر الدسوقي** إلى أن طغيان المادة، وجفاف المياه، وفساد السلائق .. كلُّ ذلك أدّى إلى انحراف الذوق الأدبي في العالم العربي نحو الأدب الهابط والأدب الرخيص الـــذي يُثير الغرائز، بل ربما وصل إلى الركاكة والغثاثة.

ومن المؤسف أن كثيراً من الأدباء يتملّقون الذوق العام المنحرف، ويُقلدهـــم الآخرون، وبذلك نرى انحطاطاً محزناً في الإنتاج الأدبي شعراً ونثراً، والسبب في رأي الناقد المذكور يعود إلى إهمال الذوق الأدبي العام، وعدم تعهده بالصقل والتهذيب في المترل والمدرسة والمجتمع، ومع فقدان التوجيه السَّديد الذي يأخذ بيد القارئ إلى ما يسمو بروحه وعقله وخلقه، ويأخذ بيد الشّادين في الأدب فيدلّهم علـــى الطريـــق الأقوم.

([٧٠]) نشرت في مجلة "الأدب الإسلامي"، العدد ٢٢/١٤٢٠هـ، ص١.

ومما يُضخّم المشكلة أننا ندخل فيما يشبه الحلقة المفرغة، فالأدباء يتملّقـــون الذوق العام المنحرف بإنتاجهم الهابط، والجمهور يُقبل على الإنتاج الهابط بســـبب انحراف الذوق العام.

ومع أن الذوق موهبة فطرية ـــ كما قدّمنا ـــ فليس هناك إنسان محروم مـــن قدر معين في الذوق الأدبي، والذي يُمكن تنميتـــه بـــالتثقيف والرعايـــة والصقـــل والتهذيب، والممارسة الذاتية.

وأمّا الرعاية والصقل والتوجيه فهي عملية مستمرة تبدأ من الآبـــاء المثقفـــين لتنتهي بالنقّاد المتمرّسين الذين لهم دور كبير في مسيرة الأدب وتوجيهه، ويأتي ما بين الآباء والنقّاد دور المدارس والجامعات من حيث العناية بتذوّق النص الأدبي، وتوجيه الأجيال إلى دراسة أدب التراث، والوقوف عند روائع الشعر القديم، والتوجيـــه إلى حفظ الكثير منها أو مدارسته، وفي هذا المجال نستطيع أن نسترشد بما ذهب إليه ابن الأثير في ضرورة أن يُكثر المرء من حفظ شعر العرب لاشتماله على ذكر أخبـــارهم وآثارهم وأنسابهم وأحسابهم، وفي ذلك "تقوية لطبعه، وبه يعرف المقاصد، ويسهل عليه اللفظ، ويتسع المذهب، ولا يستغني عن شعر المولّدين المجيدين لما فيه من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، وإشارات الملح، ووجوه البدائع".

٦-أمي

لعبد العزيز الرفاعي(٧١)

كنتُ أؤخِّر كتابة هذا المقال من حين إلى حين .. وربما لأكثر من سبب، لعلّ منها أنني لا أجد في نفسي الشجاعة الكافية لاسترجاع ذكرى تلك اللحظة المؤلمة التي تلقيت فيها نبأ وفاة والدتي، فشعرتُ شعوراً حادا أنها لحظة فطام مريرة، ولكنها شدَّ ما تختلف عن ذلك الفطام القديم .. حقا إنني الآن أفتقد حنانها فقداناً لا رجعة فيه مادمنا في هذه الحياة الدنيا.

ولعل منها أنني لا أجد هذه الكلمات التي أستعملها كلما عمدتُ إلى إعداد مقال ما، لا أجدها تُطاوعني على التعبير الدقيق عن حقيقة مشاعري تجاه هذا الحدث الكبير؛ فليس من السهل أن يُعبِّر كاتب مهما أوتي من بلاغة التعبير عن مرارة فقدان ذلك النهر الدافق من الحنان الذي كان ينهمر من ذلك الصدر الحنون!

ولعل منها، أنني كثيراً ما تساءلت: وماذا يهم القارئ خاصة في هذا العصر العجيب المضطرب بالأحداث أن أحدثه عن أشجاني الخاصة، مع ما يُغلِّف هذا الحديث من مرارة، ومع ما يطفح به العالم من أحداث مؤلمة تملأ النفس أسىً وشجناً .. أليس في تلك الأحداث الكفاية؟

ومع وجاهة هذا السبب الأخير، فقد كنتُ أُحاول أن أجد له مسوغاً .. أليس في كثير مما يكتب الكتاب أحاديث ذاتية، تدور حول ذواتهم وخصوصياتهم وأشجانهم؟ وقد وجد عشاق الأدب في هذه الخصوصيات أصداء لمشاعرهم، إلى المتعة الأدبية، وإلى جوانب من الإبداع، تُرضي النفس والقلب والعقل؟.

---

(٧١) عبد العزيز الرفاعي: أمي، المجلة العربية، العدد (١٧٨)، شعبان ١٤١٣هـ، ص٥٤ فما بعدها.

*

وأبادر فأقول: إنني لستُ من هؤلاء القادرين على الإمتاع والإبداع، ولكنني أجد في مثل هذه النفثات راحة نفسية هي راحة الإفضاء، وأحسبني أجد في هذه النفثة شيئا آخر يهمني جدا، هو أن تكون أيضاً تحية لروح والدتي، التي جاهدت كثيراً، واحتملت كثيراً، وضحَّت كثيراً، لكي يكون هذا القلم الواهن قادراً على شيء من التعبير .. إذن فلتكن هذه الكلمة لمسة وفاء معلنة لها.

ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن تكون أمي قد روّضت حروفي .. كلا .. فلم تكن قد نالت حظا من التعليم، فشأنها في ذلك شأن جيلها، الذي لم يتجاوز الكتّاب الذي حفِظت فيه بعض قصار السور، ثمّ انبترت صلتها بالحرف، فلم تعد تُدرك منه شيئاً، وإن ظلّت طوال حياتها المديدة وثيقة الصلة بثقافة السماع، تأخذ وتروي، وقد تُبدع.

لقد روّضت قلمي بمؤازرتها الفذة .. بوقوفها بكل قواها إلى جواري، في كل تلك الظروف الصعبة التي أحاطت بنشأتي صبيا فقيراً، يقف وحيداً تجاه قسوة الحياة إلا من حنانها وثباتها وصبرها وجهادها .. أليس من حق هذه الأم المجاهدة الصّابرة، أن أقول عنها كلمة هي بعض واجب هذا القلم، الذي كان لها الفضل الكبير في ترويضه؟

ثمّ أليس من حق قرائي عليَّ أن يعرفوا منْ كان يقف ورائي، لأكون هذا الذي كنت، مع التحفظ الشديد عند هذا التعبير .. ورحم اللهُ امرءاً عرف قدر نفسه!

*

كانت أمي كلَّ دنياي، كما كنتُ كلَّ دنياها، فقد كنتُ وحيدها إلا من أختين، كما كنتُ شجرةً مُفردةً في البرية .. ليس لي أعمام ولا أخوال، كما فقدتُ

عطف أبي وأنا صغير .. في وقتٍ كنتُ في أمسِّ الحاجة إلى مساندته، أقول: فقدتُ عطفه، ولم أفقدْه!

لقد فرَّقت ظروف قاسية بين والدتي ووالدي، وكان في ذلك بدء لمرحلة شقاء أليمة بالنسبة لي، اضطررتُ بعدها أن أعتمد على أمي في تأمين حياتي، وحياة الأسرة الصغيرة التي تضمنا.

كان البؤسُ يُحيط بنا من كل جانب، ولكني وجدتُ أمامي شخصاً صُلب العزيمة، ثابتاً، جلداً، مُثابراً، كان هذا الشخص هو أمي .. لقد استمدَّت من ضعفها قوة عجيبة، وصنعت المستحيل لكي تُؤمِّن لنا، ولو أدنى مستوى ممكن من العيش بما كانت تبيعه من منسوجات نسوية لم تكن تُدرُّ إلا القليل.

كنتُ في مفترق طريق صعب جدا .. وأنا بعد في حوالي الثالثة عشرة من عمري؛ فإما أن أُفارق الدراسة لألتمس عملاً يؤمِّن حياتنا، وأستطيع أن أضع حدا لمتاعب والدتي، فقد كنتُ أُحسُّ بما تُعاني من شقاء جسمي ونفسي .. وهي تُحاول أن تعول هذه الأُسرة، وإمّا أن أُواصل دراستي، ولو إلى الشهادة الابتدائية على الأقل، وفي هذه الحالة سيظل كفاح والدتي مكتملاً، وإن كان الأمر فوق احتمالها .. فقد أخذ المرض والإعياء ينالان منها!

*

كنت ــ حقا ــ بين أمرين أحلاهما مر، ولكني لم ألبث أن اخترت ــ بالاتفاق معها ــ طريقاً وسَطاً، هو أن أعمل في وقت فراغي، وهكذا كان، فعملت في الأمسيات، وعملت في الإجازات .. وهكذا وضعت كتفي الصغير إلى جوار كتفها الواهن، وواصلنا حياة صعبة المراس! ولكن ظلَّ كتفُها هو الذي يحملُ العبء الأكبر.

وهكذا كانت أمي لي أباً منذ صباي الباكر، وكانت هي عمي وخالي وإخواني وكل أقاربي، إذ لم يكن لي من كل هؤلاء أحد.

وهكذا استطاعت مع وسائلي الواهنة أن تحمل العبء إلى حين تخرجي من المعهد العلمي السعودي الذي حملت شهادته سنة ١٣٦١هـ، عندئذ فقط أرحت كتفها من عبء النفقة، وهو لم يكن إلا أحد أعبائها الكثيرة.

أما العبء الأكبر فقد كان عبء التربية والرعاية، في هذا المجال كان عليها أن تكون أما، وأن تكون أباً .. وكان طبيعيا أن تمنح أمومتها لي ولأختيَّ، ولكن أن تقوم بدور الأب أيضاً، فتلك هي المهمة الشاقة، كان عليها أن تكون مفتوحة العينين تماماً لروحاتي وغدواتي وسائر تصرفاتي .. وأن تُراقب صداقاتي وانتظامي في المدرسة، وأن تُؤمِّن طلباتي المدرسية، وكان كل ذلك يتطلّب نوعاً من الحزم، قلّما يتوفَّر لدى الأمهات. وكان عليها هنا أن تتخلّى عن بعض حنانها، وأن تنسى — إلى حد ما — أني وحيدها، وقد نجحت في هذا الدور الصعب؛ فكنتُ أحسبُ لحزمها ألف حساب، ذلك الحزم الذي كنتُ أجده في الكلمة القارصة العنيفة في غير ما إسراف، أو في "علقة" من مقبض "المروحة" التكروني أو الطائفي، أو "المدك" الذي كان يُستعمل في لضم "دكاك" السراويل .. كان هو الآخر أداة إرهاب، وكان كثيراً ما يكفي التلويح بأحد هذين السلاحين .. فقد كان أحدهما كافياً تماماً لروعي.

ولعل أدق مهامها أن تُراقب صداقاتي، فلم تكن تسمح لي أن أُكوِّن صداقات إلا مع من تثق بهم، وكانت ضنينة بثقتها، وكان شكها كبيراً، وهو مظهر من مظاهر ذكائها الحاد الذي كانت تستطيع أن تقرأ به الملامح، وأن تتفحّص به اللهجة الصّادقة، وابنة عمها المزيفة. ولكنّها مع كل شكوكها لم تكن تُضيِّق الخناق عليَّ، بل تُدرك بحسِّها المُرهف أنه لا بد من منحي شيئاً من الحرية، وحينما تجاوزتُ العاشرة، وأخذتُ أسعى إلى أن تكون لي "خصوصية" لأنفرد بكتبي ولعبي، كانت تجتهد في أن تُهيِّئ لي هذا المناخ، في ذلك الحدِّ الضيق الذي كان يسمح به فقرُنا!

*

لقد استطرْتُ من الفرح حينما أعطتني بقايا "شنطة سفر" كبيرة لأجمع فيـــها أوراقي وكتبي، إنها أول مكتبة كوَّنتُها، وكانت هي صاحبة الفضل فيها، ثم أخذت بعد ذلك تحترم هذه الخصوصية، وتُفسح الطريق لظهورها.

وكانت لا تتسامح مع الخطأ إن أخطأتُ، كما كانت تُشجِّـــع التصرفـــات السليمة.

في بعض الأحايين كانت تُبدي بعض الضيق بكتبي وأوراقي، وبالفوضى التي تنجمُ عنها، ولكنها سرعان ما تستسلم، وكأنها كانت تُدرك أهمية الكتاب بالنســـبة لي.

وحاولَتْ في يومٍ من الأيام ــ حينما أصبحتُ موظفاً، وأصبحتُ سيدَ البيت ــ أن تلفتَ نظري، إلى أنني أُنفق الكثير على اقتناء الكتب، وكان هذا الكثـــير لا يزيد معدله على عشر مرتبي، فكانت حجتي أنني لا أُدخِّن مثل الكثير من لِداتي، وأن ما ينفقه أمثالي مبدداً في الهواء، أُنفقه على شراء الكتب التي تُغذِّي فكـــري .. ثم إن الكتب تُعَدُّ من المدخرات مهما كسدت أثمانها، ومهما ضاق بعضُ الناس بها ذرعاً.

وكانت حجتي مقنعة لها، و لم تعد تُناقشني بعد ذلك في تلك الكتـــب الـــتي تكاثرت بعد ذلك تكاثر الفئران، وأصبحت ظاهرة مستشرية لا سبيل إلى دفعـــها! وإن صدَق فيَّ قول القائل: وعند الشيخ كتب مكدسة، ولكن ما قرأها!

ولعلَّ مما كان يُعزي أمي عن هذه الكتب التي أخذت تغزو دارنا، هي أنهـــا نشأت هي الأخرى في مناخ كتبي. فعندما كانت **"نفيسة"** ــ وهذا اسمها ــ طفلـــةً صغيرةً، كانت تجلس في دكان والدها السيد **عبد الفتاح الرشيدي**، وتراه وهو يبيع الكتب التي كانت شائعة تلك الأيام كصحيح البخاري، وفتوح الشام، والقصـــص الشعبية. وحينما كان والدها يتغيّب عن الدكان لبعض شأنه، كان يتركها لحراسته، و لم تكن تتردَّد في البيع، وإن كانت تُخطئ، بحكم سنها، في بعض تصرفاتها، وكان هذا طبيعيا.

كانت تحدثني بذلك، وعند ما دارت الأيام وسكنتُ جدة عام ١٣٧٥هـ، وترددتُ على **الأفندي محمد نصيف** آخذ من علمه وأدبه وأحاديثه، وأتنسَّم هواء مكتبته الرائعة، قلت له ذات يوم خلال أحاديثنا المنفردة: إنَّ والدتي من مدينته، من جدة، سألني متطلعاً:

ـــ ابنة مَنْ هي؟

فلم أكد أذكر اسم والدها، حتى قال:

ـــ هل تعلم أن جدك هذا أول من استورد الكتب في جدة؟

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: لقد كان جدك رجلاً ربعة القامة، نحيلاً، قمحيَّ اللون، وكان له دكان في "زقاق الحبّال" الذي كان هو الآخر يبيع الكتب، ثم نقل دكانته إلى جوار مدخل بيت **باناجة** المعروف في سوق الندى، وكان من عادته أن يأخذ بضاعته من الكتب من آل الفدّا في باب السلام بمكة المكرمة، ولكنه جاءني ذات يوم ـــ الكلام للأفندي نصيف ـــ وكان سني آنذاك حوالي العشرين، وقال لي: يا أفندي، أبغاك تكفلني عند **فرج يُسر**، وكان هذا رجلاً موسراً، يُقرض المحتاجين، وله مشاريع خيرية، أهمها أنه أجرى العين التي كانت معروفة باسمه آنذاك، أي عين **فرج يسر**، ومكانها تقريباً في مكان جامعة الملك **عبد العزيز** اليوم، فاستفسرتُ منه عن الغرض من الضمان، قال: إنني أحتاج إلى عشرين ذهبية أُرسلها مع فلان إلى مصر، ليُرسل إليَّ بضاعةً من الكتب، فإن ذلك أوفر لي من شرائها محليا، وسأردُّ المبلغ إليه بعد انقضاء موسم الحج القادم، فذهبت معه إليه، وأخرج الشيخ **فرج يُسر** المبلغ المطلوب من "البشتخته" أي من الصندوق الصغير المخصص لحفظ النقود والأوراق المهمة، وسلمه إليه، فكتبنا له سنداً به، وتمكَّن جدك من استيراد كمية من الكتب، كانت أول كتب يستوردها كتبي في جدة من مصر رأساً.

كما تدرّبت على العيش في مناخ الكتب بعد أن تزوّجت والدي الذي كان يرحمه الله — قارئاً مولعاً بالمطالعة، يقرأ كل شيء .. الصحف والمجلات، والقصص، والروايات القديمة والحديثة، وكتب التراث، وبعض الأدب الجديد. ولكنّه كـــان في تنقلاته الكثيرة — بحكم وظيفته — من بلد إلى بلد، وبما كان يتعرّض له من أزمات، كان يُحسن التخلص من الكتب، فيبيعها إلى حين يستطيع شراء غيرها، وقد يُهديها إلى من يراه قادراً على الاستفادة منها.

وقصة اشتغال جدي لأمي ببيع الكتب في جدة، ثم العمل على استيرادها من مصر، ذكرها الشيخ **عبد القدوس الأنصاري** — يرحمه الله — في كتابــه الضخــم "تاريخ جدة"، استقاها من **الأفندي نصيف** الذي كان يُكثِر من التردد عليه، خاصةً حينما كان مشتغلاً بإعداد مادة كتابه ذاك.

وكان هذا الجو المليء بالكتب في طفولتها الباكرة، ثم في شبابها، ثم في مرحلة ما بعد الشباب، قد تعاون مع موهبتها الذاتية في تنمية معلوماتها، حيث كانت تتمتّع بذاكرة حية، تستوعب وتختزن، وتُحسن استعمال مخزونها من المعلومات.

حفظت الأحداث والتواريخ، والأمثال البلدية التي كانت تحفظ منها الشــيء الكثير، وإذا كانت بعض الأمثال تعود إلى أصل شعبي مصري، فقد كانت تحــرص على أن تنسبها لهذا المصدر، فتقول: قالت المصرية، ثم تورد المثل بلهجته المصريـــة. وقد استطعتُ أن ألتقط بعض الأمثال من روايتها، ولكن إلى حد ما. أما مخزونها من الشعر العامي، سواء العامية الحضرية المستعملة في مكة المكرمة وجدة وأمهات المدن الحجازية، أو العامية البدوية الشائعة في بادية الحجاز، خاصة ما يُمكـــن أن أسميــه بالودياني، نسبة إلى الوديان الخضراء المحيطة بمكة وجدة، فقد ساعدها هذا المخــزون على أن تنظم شيئاً من الشعر العامي، الذي يُخيَّل إليَّ أنه لقاء ما بين الشعر والنـــثر المسجوع. على أنها كانت تُخفي عني هذه الأشعار، فهي كثيراً ما تكــون أشعــاراً

نقدية لبعض ما يقع في المجتمع من نشاز التصرفات، و لم أقف على شيء من هذه المقولات إلا في وقت متأخر جدا.

*

كانت ذاكرتها اللاقطة الحية تُساعدها على تسجيل الأحداث التي مرّت بها؛ فكانت تقصُّ علينا قصة حياتها وكأنها تقرأ في كتاب مفتوح، وهي قصة مليئة بالمتاعب، فقد تغرّبت عن بلدها "جدة" وهي في ريعان الشباب في صحبة أبي الذي كان يتنقّل بحكم عمله في الجمارك من بلد ساحلي إلى آخر على طول البحر الأحمر، من العقبة إلى ضبا وأملج وينبع والليث، وكانت هذه البلدة الأخيرة آخر المطاف، حيث استقرَّ به المقام بعدها في مكة المكرمة، وقد صحب هذا الاستقرار بداية حياة بائسة غنية بالبؤس والفقر!

ولكن رُبَّ ضارة نافعة، فقد كانت هذه البداية البائسة عهداً مباركاً بالنسبة لي أنا بالذات، فقد أدخلني والدي ــ يرحمه الله ــ وأنا في حوالي السادسة أو السابعة المدرسة، وصدق القائل: إن مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد بدأت صحبتي مع الحرف .. مع كل ما يحيط بحياتي من جفاف شديد، واجهته منذ تلك السن المبكرة. ولكن والدتي ــ يرحمها الله ــ كانت تحرص على أن أتعلم رغم غرامي باللهو، والإهمال، وما كنتُ أُمنّيها به من خسائر تتمثّل في ضياع الدفاتر والكتب والحذاء، والإحرام .. الذي كان يُستعمل للوقاية من الشمس.

وكان إذا تيسَّر لها أن تمرَّ عليَّ خلال "الفسحة الكبيرة" تُتحفني بقرش كبير في استدارة القمر، ليلة أربع عشرة، وكان هذا بالنسبة لي يشكل ثروة هائلة، دونها ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية! وقد ظلّت على حرصها هذا إلى أن أصبحتُ على أبواب الشباب، وعلى أبواب المعهد، وكان الإجهادُ منها قد نالَ كلَّ منال، فقد تضافرت عليها الأحداثُ والأمراضُ وحياةُ الجفاف، فلم يكن في وسعها أن تستمرَّ في الكفاح، فحملتُ عنها العبء قبلَ أن أُكملَ السنةَ الدراسيةَ النهائيةَ في

المعهد، فاستقبلتُ حياةَ العملِ مدرساً، وإن ظَلَلْتُ على دراستي بالمنزلِ حتى حصلتُ على شهادة المعهدِ العلمي السعودي، وبذلك قرّت عينُها، وانتهتْ متاعبُ العيش.

*

كنتُ أُعدها مرجعاً في تاريخ جدة، فهي تعرف بيوتها وتعرف حاراتها، وتعرف مشاهير أهلها، فتعرف — مثلا — أن حمزة شحاته يرحمه الله كان في شبابه يسكن "حارة الشام"، وكان أهل الحي يُعدُّونه زينة شباب الحي، وأنَّ لأهل الحي في ذلك شعراً عاميا، وأنه كان يتمتّع بوسامة تجعل فتيات الحيِّ يهرعن إلى الرواشين ليرينه إذا مرَّ، وكما هو معلوم، فإن مدرسة "الفلاح" التي كان يُدرِّس بها تقع في هذا الحيِّ إذا لم أكن مخطئاً.

وكانت تقصُّ عليَّ أنَّ والدها — يرحمه الله — اشترك مع بعض جيرانه في استقدام مدرس مصري — كان اسمه "شاهين" — يُعلِّم أولادهم الصغار، وإنَّ أحدهم تبرَّع بإخلاء غرفة في داره لتكون نواة هذه المدرسة، وأهل جدة أدرى بهذه المعلومة وتفاصيلها، وأحسب أن الأستاذ عبد القدوس الأنصاري — يرحمه الله — قد أوردها في كتابه الضخم "تاريخ جدة".

وكثيراً ما حدَّثتني عن الأحداث الكبيرة التي تعرَّضت لها جدة، كالحروب والحصار والمجاعة، كما حدثتني عن كبار البيوتات بها، وعن الأصول التي تنتمي إليها بعض البيوتات، وتجاراتها، وبدايات أعمالهم، وتقاليد الأسر ... إلخ، ولكني لم أحفل بتدوين شيء من أحاديثها، وأعترف أن ذلك كان تفريطاً مني .. ربما كان مردُّه أني كنتُ أفضل أن تكون جلساتي إليها عائلية محضة .. أقول ربما، وإن ظللت غير مقتنع بهذا العذر.

وإذا ذهبت أبحثُ عن أهمِّ ما تميَّزت به في حياتها، فقد كان يتمثّل ذلك في صبرها واحتمالها.

*

في صدر شبابها فقدت زوجها الأول، الذي تُوفي شابا، ثم فقدت ابنها منه وهو في حوالي العاشرة، وفقدت بعض أطفالها من أشقّائي قبل أن يتجاوزوا سنَّ الرضاع في بلدان صغيرة نائية، لا تعرف الطب والأطباء، واغتربت عن بلدها ووالدها في رحلات متعددة، وعاشت في بلدان أشبه بالقرى، تقل فيها وسائل الراحة، ثم تعرّضت للفقر والحاجة، وتحمّلت شظف العيش، وسكنت بمكة في بيوت خربة، لم تجد أمامها غيرها، وكانت عرضة أن تنقضَّ علينا في أية لحظة، وكانت الأمطارُ عنصراً مروِّعاً لنا، بل كنا نضطرُّ إذا اشتدَّ هطولها إلى الهجرة إلى دور بعض معارفنا حتى تنقشع الأمطار. ونالت منها الأمراضُ نيلاً غير يسير، واضطرت أن تعكف هي وابنتُها الكبرى على ماكينة الخياطة، وعلى "المنسج" لحياكة الملابس وما إليها، لتأمين حياة الأسرة التي كنتُ أنا رجلَها الوحيد قبل أن أبلغ مرحلة الشباب.

احتملت كل ذلك بصبر وإيمان وعزيمة، وكان إيمانها بالله عظيماً، وكان تدينها وحرصها على فروضها منذ شبابها، يُعينها على ذلك الاحتمال العجيب!

*

إنني لا أكتب عن امرأة مثالية، ولكني أكتب عن "أمي"، هذه اللفظة السّاحرة التي لم أعد أجد لها مكاناً في حياتي إلا الذكرى، وإلا نفثات تعتادني الحين بعد الحين.

أمي ..

إنني أحاول أن أكتب عنك كلمةَ رثاء، ولكنك أخذتني برفقك المعهود إلى عالم الذكريات، فدخلته برفق أيضاً، وأنا أُشفق على قرائي من أن أُقحمهم في أمر لا يعنيهم، إلا بقدر ما يعني الصديق أمر الصديق، فيُصغي إلى ثرثرته.

وماذا عسى أن أقول في رثائك؟

لم أشعر بالكلمات تخذلني قط كما أحس بها اليوم، إنها تتفلّت منّي تماماً، كما كانت تتفلّت مني كلما وقفتُ أمامك وأنا ألتمس كلمة اعتذار.

إنني اليوم أبحثُ عن تلك الكلمة، كلمة الاعتذار، عن هذا العيِّ، وعن هـــذا الوجوم.

لو اعتصرْتُ عمري كله دموعاً لأبكيك يا أمي، لما وفيْتُ بحق دمعةٍ واحـــدةٍ من عينيْكِ الغاليتيْن، انسكبتْ ذات يومٍ من أجلي .. وكمْ سكبْتِ منْ أجلي مـــن دموع!

كانت الأسفارُ — وأنا بها مولع — تأخذني منكِ كثيراً، وتذهب بها بعيداً .. وكثيراً ما كنتُ أجدُ نفسي سعيداً، وأنا أستقبلُ رحلةً جديدةً أطلُّ بها على العـــالم. ولكنَّكِ كنت كلما جدَّ لي للرحيل عزم، تستقبلين عالماً من الأحزان، وتُشرق عيناك بالدموع، ولكنني كنتُ في كل مرة أُعلِّل النفس بأن ألقاكِ على ما أُحبُ وتُحبـــين، وإن كنتِ في الأيام الأخيرة قد أصبحتِ أقلَّ تفاؤلاً، يُخامرُك شعورٌ غريب أنني لنْ أكونَ جواركِ .. حينما يحينُ موعدُ رحلتكِ البعيدة.

وهكذا كان، فقد رحلْتِ وكان بيني وبينكِ آلافُ الأميال حتى لفقدت الأملَ في أنْ أُلقي عليْكِ النظرةَ الأخيرةَ، لولا أنَّ رحمةَ الله كانتْ أوسعَ لي .. فاســـتدعاني شوقُكِ، واستجاب اللهُ دعاءك، فأتاحَ لي أن أُقبِّلَ جبينَكِ الوضيءَ في نظرةٍ أخيرة.

فلم يكدْ أخي معالي الشيخ أحمد زكي يماني يعلم بمحنة وجـــودي بعيدجـــاً عنكِ، حتى وضع بين يدي — جزاه الله أوفى الجزاء — بساطاً من أبســـطة الريـــح، تُقلُّني في ساعات، فإذا أنا بين يديك .. فإذا بي إلى جوار جثمانك الحبيـــب، وإذا بي من جملة المصلين عليه، الواقفين على ثراه.

يرحمك الله يا أمي، رحمة عباده الأبرار، وجمعني الله بك في دار القرار، مـــع الصّالحين والأخيار.

٧-كيف حال الذئاب؟!

لعلي خالد الغامدي ([٧٢])

أعرف أشخاصاً هوايتهم تربية الطيور، وتربية الحمام، وتربية الأرانب، وتربية القطط، وتربية الببغاوات، وتربية الصقور، وتربية التيوس، وتربية الماعز والضأن، لكن هذه أول مرة أعرف فيها شخصاً هوايته تربية الذئاب؛ اشترى زوجين من الذئاب، ورعاهما، وأطعمهما، وسقاهما، واعتنى بهما جيداً فتوالدا، وتكاثرا، حتى بلغا خمسين ذئباً بالتمام والكمال.

والذين يهتمون بتربية الطيور والحمام والأرانب والتيوس والماعز والضأن، هدفُهم إلى جانب إشباع هوايتهم، الاستفادة من أكل لحوم هذه الحيوانات. والذين يهتمون بتربية القطط والببغاوات والصقور، هدفهم إشباع هواياتهم، والترويح عن أنفسهم بالطريقة التي يعتقدون أنها ملائمة لهم، أما أن تكون هواية شخص تربية ذئاب، والعناية بها، والسهر على راحتها، والإشراف على ولادتها، ورعاية صغارها، حتى بلغت هذا العدد الكبير والمخيف، فهو مصدر الاستغراب والاستنكار!

ولو أراد صاحبنا أن يقضي على أغنام استراليا وتركيا، لكان بإمكانه ذلك عن طريق إطلاق سراح هذه الذئاب المُدجّنة تدجينا حديثاً، والمرباة تربية عصرية. وبالطبع لم يدُر في تفكيره وهو يقوم بتربية الذئاب مثل هذه الأفكار السوداء، كما أنه من المؤكّد لم يضع في مخططه أن يتركها تسرح وتمرح في البراري لتقضي على البقية الباقية من أغنامنا المحلية، أو تُحدث فزعاً للرعاة الجدد من أبناء جنوب شرق

([٧٢]) علي خالد الغامدي: كيف حال الذئاب، الرياض، العدد (٩٤١١)، في ١٩٩٤/٣/٣١م، ص١١.

آسيا الذين نستعين بخدماتهم في مراعينا، بعد أن صار الرُّعاة لدينا يملكــون ســجلا تجاريا، ويستقدمون رعاة، ومزارعين، وسائقين، وصبّابي قهوة ..!

ومن المؤكّد أيضاً أنّ صاحب الهواية العجيبة المدهشة ليس مولعـاً بشكـل الذئاب ــ فلا أحد يولعُ بشكلها ــ وليس مُغرماً بصوتها ــ فلا أحد يُغرمُ بصوتهـا ــ وربما تورّط في هذه الهواية، وأنّ أحد الوافدين مـن ذوي المشـاريع الإنمائيـة والاستثمارية قد نقل فكرة تنمية الذئاب وتكاثرها وزيادتها، فيُصبح الرجل صاحب تجارة فريدة على مستوى العالم؛ فيقوم ببيعها محليا وعالميا، لتغطية حاجات حدائـق الحيوانات، ويتحوّل الرجل بعد أن صبر خمس سنوات في تربية ورعاية الذئـاب إلى تاجر ذئاب من الدرجة الأولى، ويتوافد على مزرعته مندوبون من مختلف حدائـق الحيوانات في العالم يطلبون ــ والدولارات في أيديهم ــ مجموعات مميزة من الذئاب السمينة على حدة، والرشيقة على حدة ..!

والرجل صاحب الذئاب وكافلها والساهر رغم أنفه حاليا على رعايتها أعلن الآن ضجره الشديد، وضيقه الكبير من هذه الذئاب الكثيرة التي بدأت لعبة، وانتهت مأساة! وقد أعلن الرجل عن رغبته في بيع هذه الذئاب بأي ثمن، شرط أن يُحـافظ من يشتريها على عدم إزعاج جيرانه من عواء هذه الذئاب؛ بوجود مكـان فسـيح توضع فيه، فيختفي صوتها وسط هذا المكان، فلا يشكو شيخ من عوائها، ولا يفزع طفل من شكلها، ولا يخشى شاب من انفلاتها، ولا تُصاب بنـت أو امـرأة مـن وجودها. هذا الشرط الإنساني في حالة وجود مشترٍ سيؤدّي إلى انخفـاض الثمـن، لكنه يعكس موقفاً أخلاقيا يستحق صاحب الذئاب عليه الشكر والتقدير والامتنان، فهو قد عانى من عواء ذئابه وإزعاجها ورعبها، ولا يُريد أن يُصاب أبناء مجتمعه بمـا أصيب به، فطالب من يشتريها بأن يكون لديه مكان واسع، وفسيح، وبعيـد عـن الكثافة السكانية!

وأنا شخصيا أُقدِّر هذه الورطة الفادحة التي وقع فيها بحسن نية، أو بتأثير من أحد الوافدين أصحاب الأفكار الاستثمارية؛ فقد سبق أن خضنا تجربة سلمية، فاشترينا ديكاً وثلاث دجاجات قرّرت إحدى جاراتنا إهداءها إلينا، وبعد فترة طويلة نسبيا صار لدينا ثمانون دجاجة، أتعبتْنا بأصواتها وأوساخها، و لم نجد مفرا من اتخاذ خطوة حاسمة في نهاية الأمر في إهدائها غير منقوصة وفوقها "بوسة"، لمن وافق على استلامها، فنحن أسرة لا تقبل أن تأكل لحم شيء قامت بتربيته ..!

٨-جزاء سِنِّمار!

لنويِّر العنزي ([٧٣])

منذ أيّام عاودني الحنين إلى قلمي الذي أُحبُّ، فأردتُ أن أرمق هذا المجتمع، وأُسطِّر الأحداث كما هي، فقمتُ بزيارة إلى بعض المرافق الحكومية، ومن بين تلك الزيارات ذهبتُ إلى دارٍ يُقال لها "دار المسنين"، واتجهتُ إلى إحدى الغُرف القريبة.

طرقتُ البابَ، وولجتُهُ مُشفقةً على مَنْ في الدّاخل، فإذا بعجوزٍ دامعةِ العينين، تخنقها آهاتٌ تسعون من الزمن. جلستُ بالقرب منها، وقلتُ لها: حدّثيني عمّا يجيشُ في نفسك من ألم، حدّثيني ولا تذرفي هذه الدموع الحزينة!

بقيت واجمة، ولم تتحدث، فانتظرتُ مليا .. وبعد ذلك نَطَقَتْ، وردّد القلمُ صداها، يكتبُ ويقول:

ما أجمل الليل! يحمل في سكونه وهدوئه جمال الطبيعة، ويؤنسُ قلب عجوز حزينة بكت دماً من شدّة المُصيبة، ودائماً تتذكّرُ في هذا الليل الطويل من احتضنتْهُ صغيراً، وكان في المهدِ بريئاً! تعبتْ وذاقت المُرَّ حلواً من أجله، تمنّت أن يكبر وترى فيه الأملَ، ترعرعَ شيئاً فشيئاً، وأصبح رجلاً. نسي ذاك المعروف، وأصبحتْ أُمُّه نسياً منسيا.

وقفَ على قدميْهِ شامخاً، وأخذ أمَّهُ ووضَعَها في "دار المُسنِّين".

لقد أخطأنا عندما قلنا "دارا" ليتنا قلنا "عالَماً" يضمُّ عبراتٍ حزينةً، يضمُّ حرقةَ قلوبٍ رحيمة! وممّن يا تُرى؟!

([٧٣]) طالبة بمركز الطالبات ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المستوى السابع ١٤٢٠هـ.

من فلذات الأكباد!

أمازلتَ صدّاحاً يا أيُّها الطيرُ؟! ارفع الصوتَ بالأهازيجِ والغناء، علّكَ تُحرِّكُ مشاعرَ الأبناءِ، علكَ تُضمِّدُ جراحَ الأمهاتِ والآباءِ!

ما الذي يدفعُ هذا الابن حتى يُلقِي بأمِّه في تلكَ الدَّار؟!

لقد كانت بطنُها له وعاء، واليوم هذا البيتُ ضاقَ بها، أم أن تلك الزوجةَ لم تعد تحتملُ أن ترى عجوزاً مُسنّةً تُشاركُها في البيت، وربما القيمُ والعاداتُ الغربيّـــةُ أفسدت النفوسَ والقلوبَ.

دع عنكَ العقوقَ، فإن الحقوق ضاعتْ، فهل تجدُ منْ يبحثُ عنها ويُرجعُـــها إلى أصحابها؟!

ربّياك صغيراً، فارحمهما وأنت كبير.

عبَسَتْ في وجهكَ، وبَسَرتْ في عينيْك، فقلتَ لأمّكَ: دعيني، فسوفَ أزورُكِ في كلِّ أسبوعٍ.

ويمضي أسبوعان، ويفيضُ حنانُ الأمومةِ لديها، ويُنافسُ قلبكَ الصَّخْرَ قساوةً.

وتمضي شهورٌ، ثمّ تتذكّر أنَّ لك أما!

لقدْ أبْعدتَ ينبوعاً من الحنانِ يتدفّقُ بشدّة، أما أنت مُشتاق إلى ذلك الينبوعِ؟ أم استغنيْتَ عنْ فيضه؟!

تقولُ: بلى، أنا مُشتاقٌ وعندي لوعةٌ.

تُرى أينَ اللوعةُ؟ وأينَ إحساسُكَ إلى والديْك؟

ومن ذلك أُنادي بأعلى صوتي، فهلْ من مُجيب لهذا النداء؟

ما ذنبُ تلك الأمُّ الحزينةُ، وذلك الأبُ الشيخُ الكبير؟!

دعوهمْ يروْن الشمسَ بخيوطها الذهبية، دعوهمْ يروْن قطرات النـــدى علـــى الأغصانِ الخَضرةِ النّديّةِ، ويسمعون، ويتلذّذون بضحكاتِ الأحفادِ البريئة!

تحدّثت تلكُ الدّارُ وقالتْ: ارحموا جدراني فإنها لم تعد تقوى على سماع الأنين، أو نبرات الشوق والحنين.

ولقد هاج اشتياقي جدةٌ تذكّرتُها .. تذكرتُها وعاودني الحنين إليها، كانتْ تسردُ لي القصص عن الحياة، وعن الغابةِ التي مُلئتْ بالوحوش المخيفة، ولا أنسى قصتَها عن ذلك الابن العاق.

كلُّ ذلك كانت تسرده لي الجدة الحبيبة، واليوم لا أراها، لقد ولّت الأنغامُ الجميلة، وبقيت عبرات حزينة.

هل تعودين يا جدّتي لتُحدّثيني مرةً أخرى؟

حدثيني لأعيشَ الماضي الذي يستكن بين أحضانك الدافئة.

الأملُ مازال يُداعبُني لأسمعَ صوتَكِ الحاني، وتلك دموعٌ صادقةٌ، فهل هناك من يُكفكفُها؟ أم تبقى تلك الدموع تخرق خدّي وترهقُ قلبي؟!

أيها القارئُ الكريم، ربما لم تكن تلك مقالة، لكنها زفرات ونبرات، ومشاعرُ وألحانٌ حزينة، بل هي قصيدة قصرت عنها بحورُ الخليل!

٩-للغربة حسنات

لزهراء الظفيري ([٧٤])

نعم .. الغربة مرة.

وهذه العبارة دارجة على ألسنة الكثيرين، وربما قالها من لم يُجرِّب الغربة أصلاً، لكنّي أرى أن الغربة خالفت القاعدة، وأذاقتني شيئا غير المرارة أجهل طعمه — وأعطتني ما لم تعطه لأحد، لأنها بالمقابل أخذت مني ما لم تأخذه من أحد، فهي في هذه الحال أنصفتني!

فالغربة علمتني ما لم أتعلمه في مقاعد الدرس أو في صفوف الحياة؛ إذ لها الفضل في تعليمي كيف أضحك بعيون دامعة، وكيف أبتسم فرحاً بقلب حزين، وكيف أداري جراحي بالكيِّ، لا بغيره، علّمتني كيف أتكلّم دون أن أنطق، وكيف أنطق دون أن أُعبِّر، وكيف أحسب الزمن دون انتظار شيء، وكيف أُضيءُ ليلي بذكريات سوداء!

علمتني كيف أُحِنُّ بعقلانية، وكيف أصرخُ بصوتٍ مهموس، وكيف أُضيِّع دربي بخطوة ثابتة!

علّمتني أن من يُقتل يموت مرة، ومن يغترب يموت بعدد لحظات غربته، أعطتني دروساً عدّة جعلت مني إنسانة سرابية.

وكان الدرس الأول منها في البلاغة فعلّمتني أنّ هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الصبر، وشبها كبيراً أيضاً بين الموت والوحدة.

([٧٤]) زهراء الظفيري: للغربة حسنات، مجلة "الأدب الإسلامي"، العدد (٢٢/١٤٢٠هـ)، ص٨٩.

والدرس الثاني كان في الرسم، فعلّمتني كيف أرسم قناعاً تعلـــوه الابتســـامة وإشراقة الوجه، أرتديه كلَّ صباح لينتزعه الغير، فيظهر اللاشيء!

والدرس الثالث في علم الأحياء فعلَّمتني أن جرح الجسد أصعب بكثير مـــــن جرح المشاعر لأنه يحتاج إلى أدوات حادة، لكن المشاعر تحتاج إلى كلمة واحدة فقط لتودي بها.

والدرس الرابع في اللغة والأدب، فعلَّمتني أن ألتزم الصمت مهما وُجِّه إليَّ من إساءات أو اتهامات، وذلك لأنها أنستني اللغة التي تربَّيْتُ عليها!

والدرس الخامس في الحساب، فعلّمتني أن الواحد إذا أنقصنا منه واحداً يُساوي أناساً كثيرين لا معنى لهم، فقط: تعرَّفنا عليهم يوماً ما، وفارقناهم في يومٍ ما، ليُصبحوا بين طيّات النسيان.

وأخيراً أعطتني درساً في النحو، فعلَّمتني أنَّ الظروفَ ثلاثة: ظـــرف زمـــان، وظرف مكان، وظرف حيْرةٍ بينهما!!

١٠-القلم الثائر

لسلمى محمود شاكر (٧٥)

ها هو قلبي يُصارع أمواج السطور المتلاطمة من حوله، ويُعلن حالة استنفار لم يُعْهَدْ لها مثيل!؛ ويتمطّى أنامل يدي، ويمتزج بها، وكأنّه الأصبع السادس لها، ويُطالبني بالعزف على أوتاره، والشروع بإزالة حبره الذي سئم من طول الانتظار، ويهمس همساتٍ توحي بالشفقة والاستعطاف بأن أمدَّهُ بأفكارٍ يشدو بها.

لكنْ ماذا عسايَ أن أقولَ لهذا المتمرِّد، فقد ماتت العبارات في جوفي، واختنقت العبرات في حلقي، فلم يعد يسمع حتى الأنين، وآثر قلبي الصبر على الحنين.

لكنَّ هذا القلمَ العابثَ الثائرَ حرَّكَ كلَّ ما بداخلي حتى زلزلني البُركان، وهزَّ كياني!

سأكتب، نعم اليومَ سأكتبُ، وفي هذه الساعةِ بالذات، سأكتب وسأُفرغ كلَّ ما يصولُ ويجولُ في صدري، وكلَّ ما يعتملُ في نفسي، وأملي على هذا القلم الذي مازال يحلمُ بأن تظهرَ كتاباته إلى النور، ويرى العالم الذي ظلَّ أسيره طويلاً؛ خوفاً من النظرات التي ستُحيط به وتُلاحقه.

لكنَّ اليومَ عادَ وكأنَّ شيئاً لم يكنْ، والخوفَ ماتَ ولنْ يعُودَ

اكتب أيُّها القلم، اكتبْ فلا تثريب عليْكَ اليومَ!

(٧٥) طالبة بمركز الطالبات ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المستوى السابع ١٤٢٠هـ.

١١-قراءة في نص:

"صـــديق"

لمصطفى صادق الرافعي[٧٦]

(أ) التقارب الروحي بين الصديقين

كانتْ نفسُهُ العاليةُ كالنَّجْمةِ وُهِبَتْ قوةَ النزولِ إلى الأرضِ، وكان حبيباً لو انْقَسَمَتْ روحي في جسْمَيْنِ لكانَ جسْمَها الثاني. كانَ دائماً كالذي يشْعُرُ أنَّهُ لا بُدَّ ميِّتٌ، وتاركٌ ميراثَ مودَّتِهِ، فلا أعْرِفُ أني رأيْتُ منْهُ إلاَّ أحْسنَ ما فيه، وكأنَّما كانَ يُضاعِفُ حياتي بحياتِهِ، ويجْعلُني معهُ إنْسانيْنِ.

(ب) ما يمتازُ به هذا الصديق الراحل

وكانَ لهُ دينٌ غضٌّ كعهْدِ الدينِ بأيَّامِ الوحْيِ، لا تزالُ تحتهُ رقةُ قلبِ المؤمنِ وفوْقَهُ رقَّةُ جناحِ المَلَكِ، يُخالطُ نورُهُ القلوبَ، وكانَ حيياً صريحَ الحـــقِّ، تـــرى صدقَ نيَّتِهِ في وجْهِهِ كما يُريكَ الحقُّ صِدْقَ فِكْرِهِ في لسانِهِ، سامياً في مروءتِهِ ليْسَ لها أرْضٌ تسْفُلُ عنْدَها، وإنَّما هي إلى وجْهِ الله فلا تزالُ ترتفعُ، ودوداً لا يعـــرِفُ البُغْضَ، مُحِباً لا يتَّسِعُ للحقْدِ، ألوفاً لا يُسِرُّ الموْجدةَ على أحَدٍ.

وكان رحيبَ الصَّدْرِ، فكأنَّ الله زادَ فيهِ سَعَةَ الأيامِ التي ســـيَنْتقِصُها مـــنْ حياتِهِ، ففي قلبِهِ قُوَّةُ عُمْرينِ، وكانَ طيِّبَ النَّفْسِ، فكأنَّ الله لم يُمُدَّ في عُمْرِهِ طويلاً لأنَّهُ نفَى الأيامَ الهالِكَةَ التي يكونُ الإنسانُ فيها معنىً من معاني الموْتِ.

---

[٧٦] مصطفى صادق الرافعي: السحاب الأحمر، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان١٣٩٤ هـ-١٩٧٤م، ص ص١٣٥-١٣٧.

(ج) أساس الصداقة: الحق والحب

آهِ لوْ عَرَفَ الحقَّ أَحَدٌ لما عَرَفَ كيفَ ينْطِقُ بكلمةٍ تُسيءُ، ولوْ عَرَفَ الحبَّ أَحَدٌ لما عَرَفَ كيفَ يسكُتُ عنْ كلمةٍ تسُرُّ، ولنْ يكونَ الصدسقُ صديقاً إلاّ إذا عَرَفَ لكَ الحقَّ، وعَرَفْتَ لهُ الحبَّ.

(د) الصديق الزائف

لا أُريدُ بالصديقِ ذلك القرين الذي يصحبُكَ كما يصْحبُك الشيطانُ، لا خيْرَ لكَ إلا في معاداته ومُخالَفته، ولا ذلك الرفيق الذي يتصنَّعُ لكَ ويُماسِحُكَ متى كان فيكَ طعْمُ العسلِ لأنَّ فيه روحَ ذبابة، ولا ذلك الحبيبَ الذي يكونُ لكَ في هَمِّ الحُبِّ كأنَّهُ وَطَنٌ جديدٌ، وقدْ نُفيتَ إليْهِ نفْيَ المُبْعَدين، ولا ذلكَ الصَّاحبَ الذي يكونُ لكَ كجلدةِ الوجْهِ تحمرُّ وتصْفرُّ، لأنَّ الصحةَ والمرضَ يتعاقبانِ عليْها. فكُلُّ أولئكَ الأصْدقاءِ لا تَراهُمْ أَبَداً إلاَّ على أطْرافِ مصائبكَ، كأنَّهمْ هناكَ حُدودٌ تَعْرِفُ بها منْ أيْنَ تبْتدئُ المُصيبَةُ لا منْ أَيْنَ تبْتَدِئُ الصَّداقَةُ.

(هـ) الصديق الحق

ولكن الصَّديقَ هو الذي إذا حضَرَ رأيْتَ كيفَ تظْهَرُ لك نفْسُكَ لتتأمَّلَ فيها، وإذا غَابَ أحسَسْتَ أنَّ جُزْءاً منكَ ليْسَ فيكَ، فسائرُكَ يحِنُّ إليْكَ. فإذا أصبْحَ من ماضِيكَ بعْدَ أنْ كانَ منْ حاضِرِكْ، وإذا تحوَّلَ عنْكَ ليصِلَكَ بغيرِ المحْدود كما وصَلَكَ بالْمحدود، وإذا ماتَ .. يوْمئذٍ لا تقولُ: إنَّهُ ماتَ لكَ ميِّتٌ، بلْ ماتَ فيكَ ميِّتٌ، ذلك هو الصَّدِيقُ.

١-التعريف بالكاتب:

ولد **مصطفى صادق الرافعي** سنة ١٨٨٠م في "بهتيم" إحدى قرى محافظة القليوبية، وقد نبغ في أسرته كثير من رجال العلم والأدب والسياسة، وكان أبوه قاضيا شرعيا، فوجهه إلى الثقافة العربية والإسلامية فعوّضه ذلك عمّا فاته من عدم

إتمام المراحل التعليمية، وقد استقر أكثر حياته في مدينة "طنطا" عاصمة الغربية، حيث كان كاتباً في إحدى المحاكم بها.

وقد اتجه في أول حياته إلى الشعر، وله ديوان من ثلاثة أجزاء، ثم اتجه إلى النثر، فكتب مقالات في مجلة "الرسالة" بين سنتي ١٩٣٣-١٩٣٧م جمعها في كتابه "وحي القلم"، كما ألّف كتبه المعروفة "تاريخ آداب العرب" و"إعجاز القرآن" و"رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" و"أوراق الورد" و"حديث القمر" و"المساكين"، و"خاض معارك أدبية عديدة مع **طه حسين والعقاد وزكي مبارك**"([٧٧])، وقد توفي سنة ١٩٣٧م، ويُعدُّ من خير الكتاب العرب في العصر الحديث، وله أسلوبه المميز بما يشيع فيه من روح إسلامية، وقدرة على ابتكار المعاني وتوليدها، وجزالة الألفاظ وقوة العبارة.

٢-المناسبة:

كان **مصطفى صادق الرافعي** يستمد موضوعات مقالاته من الحياة: فهذا النص جزء من "الفصل الثامن"([٧٨]) من كتاب "السحاب الأحمر" يصف فيه صديقاً له عاجلته المنية فمات في سنِّ الشباب. ويرسم من خلال هذا الوصف صورة للصداقة، ويُبرز ما كان يتحلّى به صديقه الراحل من مبادئ وأخلاق كريمة، ويضع مقياساً للصداقة الحقة والصداقة الزائفة.

٢-المضمون العام:

([٧٧]) عبد الله شرف: شعراء مصر ١٩٠٠-١٩٩٠، ص٩٧.

([٧٨]) الفصل الثامن بعنوان "الشيخ أحمد"، ويتحدث فيه (ص ص١٢٢-١٤٦) عن الأستاذ الشيخ أحمد الرافعي، ابن عم الكاتب، وصديق نشأته، ورفيق شبابه، والكاتب خال أولاده، وقد ذهب الشيخ أحمد الرافعي ليؤدّي فريضة الحج فأفضى إلى ربه هناك، ودفن بمكة (يُنظر المرجع السابق، ص٢٢٢).

(أ) يتحدث الكاتب عن قوة العلاقة بينه وبين صديقه الراحل ـــ الشيخ **أحمد الرافعي** ـــ فيقول: كانت نفسه عالية في صفاهًا، ولكنه متواضع في حياتــــه بــــين الناس؛ فهو كالنجمة العالية التي منحها الله القدرة على الـــنزول إلى الأرض، وكنـــا نتشابه في الأخلاق كالتوأمين فهو حبيب إلى نفسي، كأنه شقيق روحــــي. وكـــان حريصاً على مودة الناس وحبهم لتظل تلك المودة ذكرى طيبة له عندهم بعد مودته، فلم أر منه إلا أحسن ما فيه. وكانت حياته تزيد حياتي وكأني أصبحت شخصين هو أحدهما، فأنا به أعيش مرتين في الوقت نفسه.

(ب) وكان يمتاز بقوة الإيمان التي تملؤ القلب وتشعرنا بحيوية الدين كما كان الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ في أيام الوحي، ففي أعماق نفسه قوة قلبِ المؤمـــنِ ومعها سمو‌ُ الإيمانِ ونورُه، ويمتاز بالحياء، والصراحة في الحقِّ، وصدق النية، فوجهـــه يُعبِّر عما في نفسه كما يُعبِّرُ لسانُه عما في عقله، وكانت شهامته عالية، كما كـــان محبا، ألوفاً لا يحقد على أحد، وكان حليماً واسع الصدر، كأنَّ الله عوَّضـــه بذلـــك الحلم عن قِصر عمره، وكان طيب النفس، فأيامه القصيرة كلها خير، فهي تُســـاوي أضعافَها لخلوها من التفاهة والفراغ.

(ج) وإني لأتحسّر لعدم فهم الناس للصداقة الصحيحة كمـــا فهمـــها هـــذا الصديق، فإن الصداقة الحقة تقوم على قاعدتين هما: حرص على الحق وحرص على الحب، فلو عرف الإنسان الحق معرفة صادقة لما سكت عن كلمـــة تســـرُّ النـــاس وتُسعدهم.

(د) ثم يعرض علينا الكاتب أربعة أنواع من الأصدقاء الزائفين لنحذرهم، ولا نعتد بصداقتهم: **النوع الأول**: ذلك الشخص المُلازم لك ملازمة الشيطان يُوسوس بالشر، ويدعو إلى الخطأ، وخير لك أن تُخالفه وتُعاديه. و**النوع الثاني**: ذلك المُرافق الذي يتكلّف لك المودّة، ويُلاينُك متى وجد عندك خيْراً يقتنصه، أو فرصة ينتهزها،

فهو كالذبابة تتهافت على العسل متى وجدته، فإن لم تجده طارت لتبحث عنـــه في موضع آخر. والنوع الثالث: ذلك الشخص الذي يتظاهر لك بالحب، ولا يتحمّل تبعات الصداقة، ولا يُشارك في الشدائد، فنفسه غائبة عنك كأنهـــا منفـــى جديـــد اضطُرت للإقامة فيه دون أن تعرف عنه شيئاً، فلا أنس ولا راحة. والنوع الرابع: ذلك الصاحب المتلوِّن كتلون جلدة الوجه، تحمرُّ في الصحة، وتصفر في المرض، فهو معك إن كنت في خير، وبعيد عنك إن كنت في شر. ثم يختم الكاتب هذه الفقـــرة بأن هؤلاء الأصدقاء الأربعة غير مخلصين لك، وغير حريصين على إســـعادك، إذ لا يندمجون في مشكلاتك ليحملوا عنك عبئها، ولكن يقفون على الهـــامش، كـــأنهم علامات على ظهور المصائب لا إخوان يُشاركون في تحمُّلـــها، ويُحققـــون معـــنى الصداقة.

(هـــ) يضع الكاتب في هذا الجزء من النص مقياساً للصداقة الحقة استقاءً من صداقته للشيخ **أحمد الرافعي**، فيقول: إن الصديق الحق ينبغي أن يكون بالنسبة إليك كالمرآة ترى نفسك فيه عند حضوره، فتسعد لوجوده، وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك غاب، لأنكما شيء واحد، وكل منكما يُكمل الآخر. فإذا مات وأصبح مـــن ذكريات الماضي بعد أن كان من أركان الواقع، وغادر عالمك المحـــدود، ليصلـــك بالعالم العلوي الذي لا نهاية له ولا حدود، لا تحس أن شخصا عاديا مات، بل تحس أن جزءاً منك قد مات في أعماق نفسك، وهذا هو الصديق الحق.

***

٤-الخصائص الفنية:

أولاً: الأفكار:

الأفكار مرتبة عميقة مما يؤدّي إلى غموض بعضها أحيانـــاً، وتعتمـــد علـــى الاستقصاء والتحليل والتعليل والتوليد والإجمال ثم التفصيل، فقد بدأها بالحديث عن

نفس هذا الصديق العالية، وقوة العلاقة بينه وبين الكاتب "وكان حبيا"، فهذا إجمال فصّله في بقية الفقرة. و"كان له دين غض" تفصيل إلى قوله "نوره القلوب". و"صريح الحق" تعليله وتفصيله في الجملتين بعده. و"سامياً في مروءته" إجمال، تفصيله إلى قوله: "ترتفع". ومن التعليل "كان رحيب الصدر" تعليله في "كأن الله زاد فيه" إلى "قوة عمرين". و"كان طيب النفس" تعليله "كأن الله لم يمد في عمره" إلى آخر الفقرة.

والتوليد أن يولّد من الفكرة الواحدة أفكاراً فرعية عدة، مثل "متى كان فيك طعم العسل" ولّد منها "لأن فيه روح ذبابة" و"كأنه وطن جديد" ولّد منها "وقد نُفيت نفْي المُبعدين"، و"لا تراهم إلا على أطراف مصائبك" ولّد منها "كأنهم هناك حدود تعرف منها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة" ومن التوليد أيضاً: أن يُلبس الفكرة أثواباً لغوية منوعة مثل "ذلك القرين .. ذلك الرفيق .. ذلك الحبيب .. ذلك الصاحب .. و"لا تقول: إنه مات لك ميت، بل مات فيك ميت".

ثانيا: التعبير:

١-عني الكاتب بانتقاء **الألفاظ** القوية الصافية العربية الأصيلة الدقيقة، وصاغها في عبارات محكمة قوية متحررة من السجع والصنعة المتكلفة، مع ميل إلى الإطناب، ونوّع الجمل بين الطول والقصر، ولعلك تلحظ التعبير بالفعل "كان" وتكراره للدلالة على رحيل هذا الصديق. كما تلحظ الفرق بين التعبيرين " ترى صدق نيته في وجهه" و"يُريك الحق صدق فكره في لسانه" فأنت ترى وجهه بنفسك، والحق هو الذي يُريك صدق فكره، مع الإكثار من صفات التمجيد للدلالة على الإعجاب الممزوج بالحسرة والألم لفراقه مثل "نفسه العالية، كان يضاعف حياتي بحياته، .. كان حبيباً صريح الحق، سامياً في مروءته، ودوداً، محباً، ألوفاً، رحيب الصدر، طيب النفس". وتكرار النفي لتوكيد الفكرة مثل "لا أُريد بالصديق ذلك القرين ولا ذلك الصاحب"، وبالترادف المعنوي مثل: "معاداته ومخالفته" وقد

أضاف عطف الثانية على الأولى معنىً جديداً لأن المخالفة عمل إيجابي بعد المُعـــاداة. و"إذا غاب .. وإذا أصبح من ماضيك .. وإذا تحوّل عنك .. وإذا مـــات"، وهـــذا الترتيب له هدف نفسي للتخفيف من صدمة موت الصديق، فالكاتب يتدرّج بالخبر حتى تتهيّأ النفس لتحمل صدمة خبر الموت.

وكان الكاتب دقيقاً في انتقاء الألفاظ الملائمة لمواضعـــها، مُراعيـــاً الفـــروق الدقيقة بين المرادفات، فـــ"القرين" يُلائم التشبيه بالشيطان اقتداءً بقوله تعالى عـــن الشيطان: "وقال قرينه ربنا ما أطْغيْتُهُ، ولكن كان في ضلال بعيد"، و"الرفيق" يُلائم "يتصنّع ويُماسح" لما فيه من الرفق واللين، و"الحبيب" يلائم "هم الحب" وتبعاتـــه، و"الصاحب" يوحي بالملازمة فيلائمه التشبيه بجلدة الوجه في الالتصاق.

واستخدام اسم الإشارة "ذلك" للدلالة على البُعد، ملائـــم للجـــو النفســـي لصديق زائف بعيد عن القلب، وعن معنى الصداقة الحقة. وأيضا "أولئـــك" إشـــارة لكل هذه الأنواع من الأصدقاء، و"هناك" إشارة إلى موقفهم البعيد عن المشكلـــة، و"مات فيك ميت" أدق في التعبير عن قوة الصلة من "مات لك ميت" لدلالة "فيك" على الاندماج.

ومن أساليب القصر "لا أعرف أني رأيت منه إلا أحسن ما فيه" و"إنما هي إلى وجه الله"، و"لن يكون الصديق صديقاً إلا إذل عرف لك الحق وعرفت له الحب"، و"لاخير لك إلا في معاداته ومخالفته"، و"لاتراهم أبداً على أطراف مصائبك"، و"من أين تبتدئ الصداقة"، و"لاتقول إنه مات لك ميت، وإنما مات فيك ميت"، و"ذلك هو الصديق"، وأساليب القصر كما رأيت متنوعة بين "النفي والإثبات"، و"إنمـــا"، والعطف بـــ"لا" و"بل" وتعريف الطرفين، وكلها تؤيد المعنى. والأســـاليب كلـــها خبرية تقريرية لإظهار الإعجاب بصفات هذا الصديق الرحـــل في الفقـــرات الأولى والثانية والثالثة، وللتحذير من الصديق الزائف في الفقرة الرابعة، وتمجيـــد الصديـــق الحق في الفقرة الأخيرة.

٢-من **المحسنات البديعية: الطباق** بين "العالية، النزول"، وبين "تحته، فوقه"، وبين "سامياً، تسفل"، وبين "زاد، ينتقص" وبين "الصحة والمرض" و"حضر، غاب" و"ماضيك، حاضرك" ومن الطباق بالنفي "بغير المحدود، بالمحدود"، والمقابلة بين "ينطق بكلمة تُسيء، يسكت عن كلمة تسر"، والازدواج بين "ودوداً لايعرف البغض، محبا لا يتسع للحقد، ألوفاً لا يُسرُّ الموجدةَ على أحد"، والازدواج هو التوازن الموسيقي بين الجمل دون سجع، وأثره إحداث الموسيقا، والسجع مثل "ليس فيك، يحنُّ إليك، من ماضيك، من حاضرك".

ثالثا: التصوير:

(أ) كانت نفسه العالية كالنجمة وُهِبَتْ قوةَ النزول إلى الأرض" تشبيه لسموِّ نفس هذا الصديق في سموِّها وتواضعها بالنجمة التي تعيش على الأرض، وفيه تجسيم وإيحاء بعظمة هذه النفس، وقد تأثَّر الكاتب في هذا التشبيه بقول **أبي تمام**:

دَنَوْتَ تواضُعاً، وسَمَوْتَ مجْداً
فشأناكَ انْخفاضٌ وارْتِفاعُ
كذاكَ الشمسُ تبْعُدُ أنْ تَسَامى
ويدْنو الضَّوْءُ منها والشُّعاعُ

فأنت ترى أن **مصطفى صادق الرافعي** استوحى تشبيهه من **أبي تمام**، وولَّد منه صورة جديدة حين جعل هذه النجمة قادرة على النزول إلى الأرض، ولكنَّ تصوير **أبي تمَّام** أروع لاحتفاظ الشمس بسموِّها، و"لو انقسمت روحي في جسمين، لكان جسمها الثاني" كناية عن شدة الألفة، وسر جمالها الإتيان بالمعنى مصحوباً بالدليل عليه في تجسيم وإيجاز، و"كان دائماً كالذي يشعر أنه لا بد ميت" تشبيه له في حرصه على محبة الناس بمن يشعر بنهاية أجله، وسر جماله توضيح الفكرة برسم صورة لها، و"تارك ميراث مودته" تشبيه بليغ للمودة بالميراث، وفيه تجسيم وإيحاء

بقاء أثرها الحسن وذكراها الطيبة، و"كأنما يُضاعف حياتي بحياته" كناية عن سعادته بهذه الصداقة، و"يجعلني معه إنسانين" تشبيه، فقد شبَّه الكاتب نفسه في سعادته بتلك الصداقة وامتداد أثرها بشخصين في جسم واحد (وفي هذه الصورة غموض نشأ من رغبة الكاتب في تعميق المعنى) وكان الأجمل أن يقول: "يجعلني (به) إنسانين" أي بسببه.

(ب) "دين غض" استعارة مكنية تُصوِّر الدين في حيويته نباتاً ناضراً نامياً، وفيها تجسيم وإيحاء بقوة الإيمان، و"دين غض كعهد الدين بأيام الوحي" تشبيه لقوة الدين عند هذا الصديق بقوته أيام الوحي، وسر جماله التوضيح، و"تحته رقة قلب المؤمن، وفوقه رفة جناح الملك" استعارة مكنية تُجسِّم الدين وتضعه في مكانه، وقد حذف المشبَّه به ودلَّ إليه بـ"تحته" و"فوقه" وهي توحي بعمق إيمانه وصفاء روحه كما أنها تُكمل الصورة السابقة وترتبط بها، وتُعلِّل لها، و"نوره" تشبيه للدين بالنور، وفيه تجسيم وإيحاء بالهداية، و"يُخالط نوره القلوب" كناية عن تمكّنه منها واستقراره فيها، وهي نتيجة لما قبلها، و"ترى صدق نيته في وجهه" استعارة مكنية تُصوِّر الوجه مرآة تظهر فيها النية، وكذلك يُريك الحق صدق فكره في لسانه" وفيها توضيح وتجسيم وإيحاء بالإخلاص، وهما تعليل لقوله قبل ذلك "وكان حيا صريح الحق". و"لسانه" مجاز مرسل عن "كلامه" علاقته الآلية، و"سامياً في مروءته" استعارة مكنية تُصوِّر المروءة نجماً عالياً في السماء، وفيها تجسيم وإيحاء بالإخلاص وقوة الإيمان، و"ليس لها أرض تسفل عندها، وإنما هي إلى وجه الله فلا تزال ترتفع" ترشيح(٧٩) لتلك الصورة يُقويها، و"كان رحيب الصدر" كناية عن الحلم، و"الأيام الهالكة" استعارة مكنية تُصوِّر الأيام التافهة كائناً حيا يهلك، وفيها تجسيم وإيحاء بعدم

(٧٩) الترشيح: امتداد للصورة الجميلة والخيال، بذكر شيء من صفات المشبه بـه، وضده التجريد: وهو ذكر شيء من صفات المشبه مثل (الإنسان أسد يضرب بالسيف).

الفائدة، و"يكون فيها الإنسان معنى من معاني الموت" تشبيه للإنسان في وقت خموله بمعنى من معاني الموت، لأنه لا يُحقّق فائدة.

(ج) ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان" تشبيه صحبة القرين الفاسد بصحبة الشيطان الذي يدعو إلى الشر ويُزيِّنه للناس، وسر جماله توضيح الفكرة برسم صورة لها، وفيه إيحاء بالتنفيرمن الصديق الزائف، و"يتصنَّع لك ويُماسحك" كناية عن الغش والنفاق، و"متى كان فيك طعم العسل" تشبيه يُوضِّح الفكرة، ويوحي بالنفع والخير. و"فيه روح ذبابة" تشبيه للصديق الزائف بالذبابة في التهافت على النفع والانتهازية. وفيه توضيح وإيحاء بالخسة والدناءة، ولذلك اختار الذبابة، و لم يُشبهه بالنحلة أو الفراشة، و"كأنه وطن جديد" تشبيه للصديق الذي لم تألفْه و لم تأنس به بالوطن الجديد المُقفر الموحش، وفيه توضيح وإيحاء بعدم التقارب الروحي، و"نُفيت نفي المُبعدين" تشبيه متصل بما قبله يؤكده ويزيده امتداداً، وهو يوضح الفكرة ويوحي بالوحشة، و"يكون لك كجلدة الوجه" تشبيه للصديق المتقلب بجلدة الوجه في تلونها بين الحمرة والصفرة تبعاً للصحة والمرض، وفيه توضيح وإيحاء بعدم ثبات الصديق الزائف على مبدأ، و"أطراف مصائبك" استعارة مكنية تُصوِّر المصائب أشياء مادية لها أطراف، وفيها تجسيم وإيحاء بثقل العبء، والحاجة إلى المعونة، و"كأنهم حدود تشبيه متصل بالصورة السابقة يُعللها ويزيدها امتداداً، والتعبير كله كناية عن وقوفهم بعيداً موقف المشاهدين لا المشاركين.

(د) وإذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمل فيها" كناية عن شدة التقارب الروحي بين الصديقين المخلصين، وكذلك: "إذا غاب أحسست أن جزءاً منك ليس فيك" و"أصبح من ماضيك" كناية عن موته، و"بعد أن كان من حاضرك" كناية عن حياته، و"يصلك بغير المحدود" استعارة مكنية تصور الصديق الراحل صلة بينك وبين العالم العلوي، و"مات فيك ميت" كناية عن قوة الصلة وشدة اللوعة.

والصور كما رأينا جزئية، تأثّر في بعضها بالقديم، مثـــل: النفـــس العاليـــة كالنجمة، والمودة ميراث، والدين كالنبات الغض وكالنور، والوجه مرآة، وكتشبيه صحبة الشرير بصحبة الشيطان، والإنسان الكريم بالعسل. وفي بعضها ابتكار، مثل: لأن فيه روح ذبابة، ويكون لك كجلدة الوجه تحمر وتصفر، فقد اعتـــاد القدمـــاء تشبيه المتقلب بالحرباء في التلون، ومثل: تراحم على أطراف مصائبك.

رابعا: الموسيقا:

الموسيقا في النص نوعان:

(أ) خفية نابعة من انتقاء الألفاظ، وحسن تنسيقها، وترابط الأفكار، وجمـــال الصور.

(ب) واضحة في السجع غير المتكلف والازدواج.

٥-تقويم عام للنص:

(أ) يُمثل النص مرحلة الازدهار في تطور النثر الحديث من حيـــث اتســـاع الأغراض، والعناية بالفكرة وحيوية اللفظ، والتحرر من الصنعة، وروعة التصويـــر، وواقعية الموضوع.

(ب) هذا النص جزء من مقال أدبي يُعبِّر عن عاطفة الكاتب نحـــو صديقـــه الراحل **أحمد الرافعي** في أسلوب يقرب من الشعر في قوة تأثيره، وروعـــة تعبـــيره، وتقسيم فقراته. ولا يكاد يختلف عنه إلا في خلوِّه من الوزن والقافية، وقد تحققت فيه خصائص المقال الأدبي، وهي:

١-انتقاء الألفاظ وهندسة العبارة.

٢-ظهور العاطفة القوية في ثناياه.

٣-الاستعانة بالصور الخيالية والمحسنات غير المتكلفة.

كما تحققت فيه السمات العامة للمقال، وهي:

١-تحديد الموضوع، وترابط الأفكار وتسلسلها، وبُعدهـــا عـــن التفكـــك والتناقض.

٢-الإقناع عن طريق سلامة الأفكار ووضوحها وتأييدها بالبراهين.

٣-العرض الشائق الذي يجذب القارئ، ويؤثّر في نفسه وفكره.

(ج) ينتمي الكاتب إلى مدرسة المحافظين في المقال الأدبي وخصائصها:

١-الحرص على اللفظ العربي الأصيل.

٢-التأثر بالخيال القديم أحيانا.

٣-التأثر بالثقافة الدينية.

٤-العناية بالمعنى واللفظ، مع التحرر من الصنعة المتكلفة.

(د) تبدو ملامح شخصية الكاتب من خلال النص، فهو مخلص لأصدقائـــه، محب ووفي لهم، يؤمن بالمثل العليا والقيم الخلقية السامية، إنساني النزعة، متأثر بالثقافة الإسلامية، يعتز بالصداقة الحقة الخالية من الزيف والتهافت، أو الجري وراء النفـــع الذاتي.

(هـــ) الخصائص الفنية لأسلوب الرافعي كما يُمثله النص:

١-الاتجاه إلى الواقع في اختيار الموضوع.

٢-الاعتماد على مجموعة قليلة من الأفكار مع الاستقصاء فيـــها، والتعمـــق بالتحليل والتعليل والتوليد مما يؤدّي إلى غموض بعضها أحياناً.

٣-التعمق في داخل ذاته وفي دقائق الموضوع الذي يتحدّث عنه.

٤-مزج الحقيقة بالخيال، وكثرة التفصيل بعد الإجمال.

٥-الدقة في اختيار اللفظ الأصيل، مع إحكام الصياغة والتحرر من المحسنات.

٦-التأثر بالثقافة الإسلامية والتراث العربي.

(و) المحافظة والتجديد في النص:

-من ملامح المحافظة على القديم:

١-الحرص على اللفظ العربي الأصيل.

٢-التأثر بالثقافة الإسلامية.

٣-الخيال متأثر بالقديم.

-من ملامح التجديد:

١-واقعية الموضوع.

٢-العناية بالفكرة وترتيبها.

٣-التحرر من الصنعة المتكلفة.

المراجع

أ-كتب

أبو البركات عبد الرحمن (ابن الأنباري)

١-**نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة د.ت.

أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب:

٢-**مجالس ثعلب**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٠م.

أبو العباس محمد بن يزيد المبرد:

٣-**الكامل**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٨١م.

أبو الفرج الأصفهاني:

٤-**الأغاني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.

أحمد أمين:

٥-**إلى ولدي**، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.

٦-**ضحى الإسلام**، ط٦، القاهرة ١٩٦١م.

أحمد الشايب:

٧-**الأسلوب**، المطبعة الفاروقية، الإسكندرية ١٩٣٩م.

د. أحمد محمد علي حنطور:

٨-**فن المقال في الأدب المصري الحديث**، ط١، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست، طنطا ١٩٩٦م.

د. أنور ماجد عشقي:

٩-**قضايا في الفكر والسياسة: دراسة وتحليل**، ط١، مكتبة التوبة، الرياض ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

تشارلتن:

١٠-**فنون الأدب**، ترجمة: زكي نجيب محمود، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩م

د. حسين علي محمد:

١١-**الأدب العربي الحديث: الرؤية والتشكيل**، الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية ١٩٩٩م.

١٢-**التحرير الأدبي: دراسات نظرية ونماذج تطبيقية**، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

د. حمد بن ناصر الدخيل:

١٣-**في الأدب السعودي: مقالات وبحوث**، نادي جازان الأدبي، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

سيد قطب:

١٤-**النقد الأدبي: أصوله ومناهجه**، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٠م.

د. السيد مرسي أبو ذكري:

١٥-**المقال وتطوره في الأدب المعاصر**، ط١، دار المعارف (فرع الإسكندرية)، الإسكندرية ١٩٨٢م.

د. شوقي ضيف:

١٦-**البحث الأدبي: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره**، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

١٧-**العصر العباسي الأول**، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥م.

١٨-**الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ط٨، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.

د. صابر عبد الدايم:

١٩-**أدب المهجر**، ط١، دار المعارف ١٩٩٣م.

٢٠-**مقالات وبحوث في الأدب المعاصر**، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

٢١-**من القيم الإسلامية في الأدب العربي**، ط٢، مطابع جامعة الزقازيق ١٩٨٨م.

د. عبد الباسط حمودة:

٢٢-**النثر الفني المصري في العصر الحديث**، دار الرسالة للطباعة، القاهرة ١٩٨١م.

عبد السلام هارون:

٢٣-**تحقيق النصوص ونشرها**، ط٢، القاهرة ١٩٦٥م.

عبد الله السيد شرف:

٢٤-**شعراء مصر**، ط١، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٩٣م.

د. عبد الهادي الفضلي:

٢٥-**تحقيق التراث**، ط٩، مكتبة العلم، جدة ١٩٨٢م.

د. عز الدين إسماعيل:

٢٦-**الأدب وفنونه**، دار الفكر العربي، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨م.

د. عطاء كفافي:

٢٧-**المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث**، ط١، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

د. عبداللطيف محمد السيد الحديدي:

- فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ط١، القاهرة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

د. علي الخطيب:

٢٨-**تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة**، هدية مجلة الأزهر، عدد المحرم ١٤٠٤هـ.

د. فؤاد زكريا:

٢٩-**خطاب إلى العقل العربي**، كتاب العربي، العدد (١٦)، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ١٩٧٨م.

د. محمد رجب البيومي:

٣٠-**من صحائف التاريخ**، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٨١م.

د. محمد السعدي فرهود:

٣١-**المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق**، ط١، مطبعة زهران، القاهرة ١٩٧٢.

٣٢-**نصوص نقدية**، ط٢، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٧٩م.

محمد بن سلام الجمحي:

٣٣-**طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.

د. محمد بن عبد الرحمن الربيع:

٣٤-خمائل وأزهار: **بحوث ومقالات أدبية متنوعة**، ط١، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٦هـ.

محمد العوين:

٣٥-**المقالة في الأدب السعودي الحديث**، ط١، مطابع الشرق الأوسط، الرياض ١٤١٢هـ-١٩٩٢م

محمد فريد وجدي:

٣٦ - من معالم الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م

د. محمد مندور:

٣٦-**كتابات لم تنشر**، كتاب الهلال، أكتوبر ١٩٦٥م.

د. محمد يوسف نجم:

٣٧-**فن المقالة**، ط٤، دار الثقافة، بيروت د.ت.

مصطفى صادق الرافعي:

٣٨-**السحاب الأحمر**، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان١٣٩٤ هـ-١٩٧٤م.

مصطفى لطفي المنفلوطي:

٣٩-**النظرات**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م.

ياقوت الحموي:

٤٠-**معجم الأدباء**، دار المأمون، القاهرة ١٩٣٨م.

ب-دوريات:

د.أحمد بن عبد الله الباتلي:

٤١-**استتباب الأمن في عهد الملك عبد العزيز**، جريدة "الرياض"، العدد (١١٠٧١)، في ١٤١٩/٦/٢٦هـ.

د. حسين مؤنس:

٤٢-**قراءة عربية لخريطة العالم**، الهلال، ديسمبر ١٩٨٠م.

زهراء الظفيري:

٤٣-**للغربة حسنات**، بجلة "الأدب الإسلامي"، العدد (١٤٢٠/٢٢هـ).

عبد العزيز الرفاعي:

٤٤-**أمي**، المجلة العربية، العدد (١٧٨)، شعبان ١٤١٣هـ.

عبد القدوس الأنصاري:

٤٥-**مشكلة الهجرة**، مجلة "المنهل" عدد محرم وصفر ١٣٧٤هـ (سبتمبر ١٩٥٤م).

علي خالد الغامدي:

٤٦-**كيف حال الذئاب**، الرياض، العدد (٩٤١١)، في ١٩٩٤/٣/٣١م.

د. محمد حسن عبد الله:

٤٧-**ما أروع أن تقول بغير كلام**، أخبار الأدب، العدد (٨٩)، في ١٩٩٥/٣/٢٦م

د. محمد علي شيخ مشاعل:

٤٨-**الهزات الأرضية والتفجيرات النووية**، المنتدى، العدد (١٨٤)، نوفمبر ١٩٩٨م، ص٤٦ وما بعدها.

د. محمد عمارة:

٤٩-**مثقفون بلاعمل**، الشرق الأوسط، العدد (٧٦٤٣)، في ١٩٩٩/١١/١م

وديع فلسطين:

٥٠-**من تجربتي في الصحافة**، مجلة "الفيصل"، العدد (٢٠٦).

ج-مخطوطات:

د. نبيل المحيش:

٥١-**عبد القدوس الأنصاري: حياته وأدبه**، رسالة ماجستير مخطوطة، كلية اللغة العربية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

الفهرس

* مقدمة الطبعة الرابعة ٣
- مقدمة الطبعة الثالثة ٧
- مقدمة الطبعة الأولى ٩
* الفصل الأول: المقالة : مفهومها - بناؤها - تطورها ١١
١- مفهوم المقالة ١١
٢- البناء الفنى للمقالة ١٣
٣- تطور المقاله فى العصر الحديث ١٥
* الفصل الثانى : دراسات تحليلية فى بعض أنواع المقالة ١٩
١- المقالة الأدبية ١٩
٢- المقالة الدينية ٢١
٣- المقالة الاجتماعية ٢٥
٤- المقالة السياسية ٣٢
٥- المقالة الوصفية ٣٥
٦- المقالة النقدية ٣٨
٧- المقالة الفلسفية ٤٣
٨- مقالة الصورة الشخصية ٤٧
٩- مقالة السيرة الذاتية ٤٩
١٠- المقالة العلمية ٥٠
١١- المقالة التاريخية ٥٢
- بين الخاطرة والمقالة ٥٧
* الفصل الثالث : مقالات مختارة ٦٣
١- يوم العيد لمصطفى المنفلوطى ٦٣

٢- ثقافة لطه حسين ٦٧
٣- من تجربتى فى الصحافة لوديع فلسطين ٨١
٤- سهام ماضية للدكتور محمد مندور................................ ٩١
٥- الذوق الأدبى للدكتور عبدالقدوس أبى صالح........................ ٩٥
٦- أمى لعبدالعزيز الرفاعى.. ٩٧
٧- كيف حال الذئاب؟! لعلى خالد الغامدى............................ ١٠٩
٨- جزاء سنمار! لنوير العترى...................................... ١١٣
٩- للغرابة حسنات لزهراء الظفيرى.................................. ١١٧
١٠- القلم الثائر لسلمى محمود شاكر................................ ١١٩
١١- صديق لمصطفى صادق الرافعى (نص مُحلَّل)........................ ١٢١
* المراجع ١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالديدامون - فاقوس

اسم الطالب	الفرقة	الشعبة
....	....	....

أسئلة تطبيقية فى مادة " فن المقال"

السنة الأولى : شعبة اللغة العربية

س١: عَرِّف المقال ، وبين صلته بفنون التعبير الأخرى؟

س٢: تكلم بالتفصيل عن جذور فن المقال ونشأته فى تراثنا العربى؟
وبين أهم أنواع النثر فى الأدب العربى القديم؟

س٣: وضح بالتفصيل أنواع المقال فى العصر الحديث؟
وبين الخصائص الفنية لكل نوع، وأهم كتابه، وأهم موضوعاته؟.

مدرس المادة

الدكتور

علاء محمد خضر

عضو هيئة التدريس بالكلية